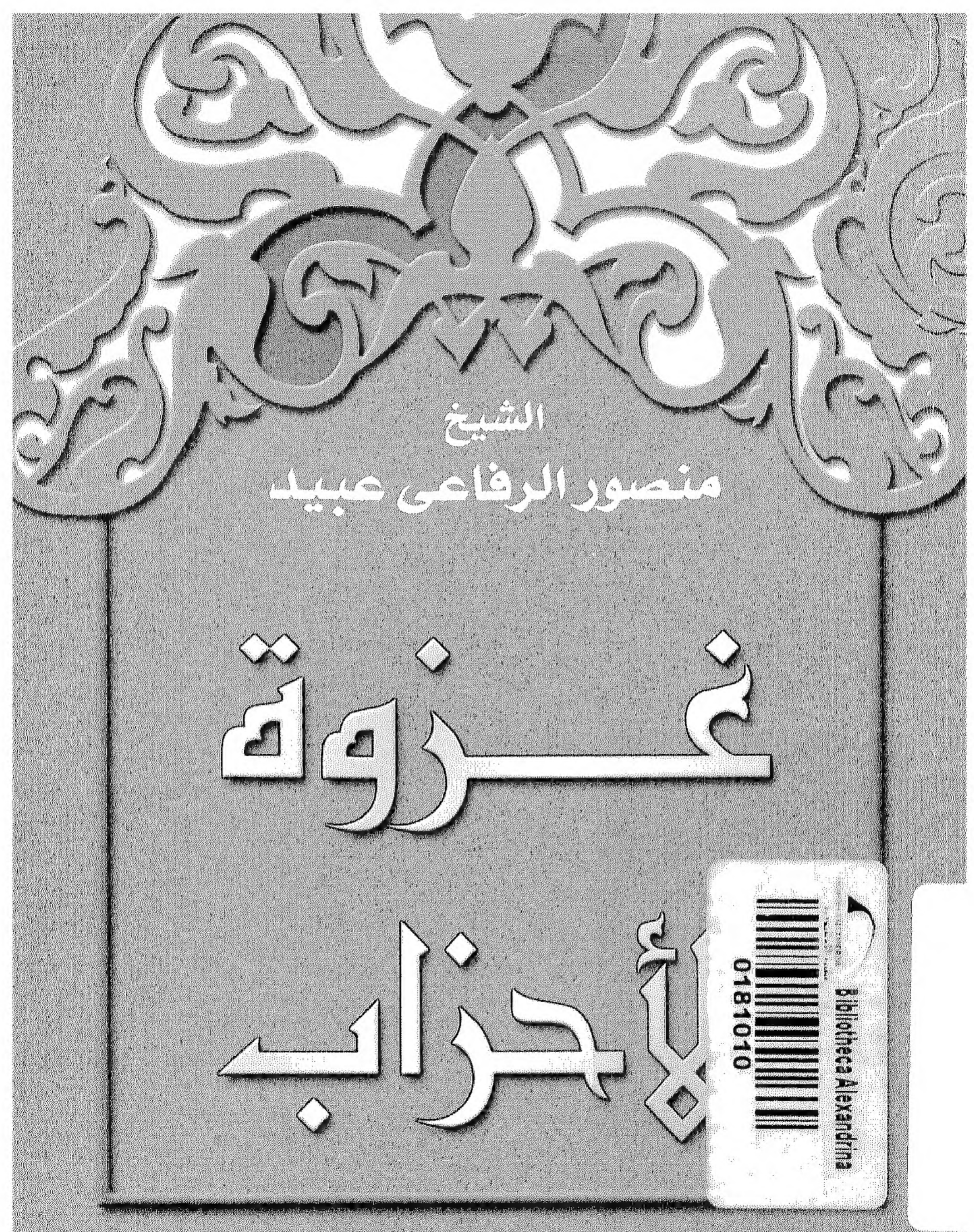


الدار الثقافية للنشر

غزوة الأحزاب
وما بعدها

الشيخ منصور الرفاعى عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق
للمساجد وشئون القرآن

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : غزوة الأحزاب وما بعدها

اسم المؤلف : منصور الرفاعى عبيد

14 x 20 سم . 96 ص .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2000/15285

Ghazwat Al-Ahzab

Mansour Obeid

14 x 20 cm. 96 p.

ISBN: 977-339-009-8

الطبعة الأولى

1421 هـ/ 2001 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة

ص.ب 134 بانوراما أكتوبر 11811 - تليفاكس 4027157 - 4172769

Email: sales @thakafia.com



مقـــدمة

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، ونصلى ونسلم على نبيك الأمين ورسولك العظيم محمد بن عبدالله النبى المصطفى الكريم وعلى آله الطيبين ، ورضى الله عن أصحابه الغر الميامين . . وبعد .

فبين يدى القارئ غزوة الأحزاب ، وقد قدمناها ، للقارئ الكريم ، لأنها ذات مغزى ودلالة وارتباط بما يجرى على الساحة الدولية الآن من تعنت اليهود وصلفهم وغرورهم وعدم التزامهم بالمواثيق الدولية واعترافهم بحق المواطنين الذين أخرجهم اليهود من ديارهم واستولوا على أموالهم ، واليهود يعرف عنهم التاريخ أنهم لا يبالون بعهد أعطوه ولا يقيمون وزنًا لميثاق أبرموه لأن العهود والمواثيق (عند اليهود) لا قيمة لها ولا اعتبار إلا إذا كانت هذه العهود والمواثيق تحقق لهم مصلحة أو تعود عليهم بالنفع - هذا خلقهم - منذ أن حلت اللعنة بهم على لسان داوود وعيسى بن مريم لأنهم كانوا قد عصوا أمر الله ومازالوا يعتدون دائمًا على الضعفاء . إن تصرفاتهم وسلوكهم فى كل المجتمعات تجسد خِسَّتهم ولؤمهم وتظهرهم أمام المجتمع العالمى ووجوههم كالحة من الغدر والخيانة ورصيدهم الهائل من المخازى والرذائل ، إنهم فى لبنان يرتكبون الأعمال الوحشية والهمجية ، وفى

فلسطين يمسحون من الوجود قرى أهلها عُزّل، ويبيدون عشرات الألوف من النساء والأطفال ويقفون بجوار الجثث يشربون الخمر ويرقصون وكأن شيئًا لم يكن. ولهذا فإن الخبراء فى علم النفس يؤكدون أن كل فرد من الشعب اليهودى قد رسخ فى ذهنه وامتزج فى دمه أن مهمته فى الحياة هى الإفساد والتخريب لكل ما هو غير إسرائيلى.

ويكفى للتدليل على ذلك أن الحركة الشيوعية ارتكب قادتها جرائم بشعة من التعذيب والقتل والإبادة كانت من الوحشية والهمجية بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلا فى مختلف عصوره، ومن الذى وضع هذه الخطة إنه (كارل ماركس) اليهودى المجرم الحاقد. كذلك أثبت التاريخ أن الذين وضعوا المخطط البشع للمجازر الوحشية التى ارتكبت فى أول عهد الثورة الفرنسية والذين دبروا كل هذه المجازر إنما هم اليهود.

ولكى ندلل على ذلك نذكر أنه فى عام ١٧٨٩م ألقى الرئيس بنيامين فرنكلين خطابًا عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلى: هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية ذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.

أيها السادة فى كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقى وأفسدوا الذمة التجارية فيها ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم وقد أدّى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليا كما هو الحال فى البرتغال وأسبانيا، منذ أكثر من (١٧٠٠)عام. وهم يندبون

حظهم ويعنون بذلك أنهم قد طُردوا من ديار آبائهم ولكنهم أيها السادة لن يلبثوا إذا ردّت إليهم الدول اليوم فلسطين أن يجدوا أسبابًا تحملهم على ألاّ يعودوا إليها. لماذا؟ لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم فإذا لم يُبعد هؤلاء عن الولايات المتحدة بنص دستورها فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة فى غضون مائة سنة إلى حد يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحكم الذى بذلنا فى سبيله دماءنا وضحّينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرّياتنا الفردية. ولن تمضى مائتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا فى الحقول لإطعام اليهود على حين يظل اليهود فى البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإننى أحذركم أيها السادة أنكم إن لم تُبعدوا اليهود نهائيًا فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مُثُلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرات أجيال فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سمح لهم بحرية الدخول فإنهم سيقضون على مؤسساتنا وعلى ذلك لا بد من أن يُستبعدوا بنص الدستور. ا، هـ[1].

هذا كلام هام جدًا لأنه صدر من أكبر زعماء الولايات المتحدة

---

(١) نشر هذه الوثيقة الأستاذ حسين أبو بكر القاضى المتخصص فى الدراسات الإسلامية (سعودى الجنسية) ونشرت فى جريدة الندوة بمكة فى العدد ٥١١ بتاريخ ربيع الأول سنة ١٣٨٠هـ وقد نشر النصّ الإنجليزى فى حينه.

الأمريكية فى القرن الثامن عشر وأعظم قادتها والمخلصين لها على الإطلاق وهذه الوثيقة موجودة فى معهد بنيامين فرنكلين فى فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، ويتبين من هذا أن كل القادة والمسئولين الحريصين على سلامة أوطانهم وشعوبهم يحاولون تطهير أوطانهم وتنقية مجتمعاتهم من هؤلاء اليهود لعلمهم بحقيقة نفوسهم وما يتسمون به من الإفساد والتخريب والتدمير، فاليهود كالجسم الغريب الضار على جسد البشرية، فما حلّ اليهود على بلد إلاّ وارتكبوا من الجرائم والخيانات والدّس بين الناس والوقيعة بينهم بأسلوب غير مسبوق، فكل تيارات التدمير الخلقى والانحراف العقائدى إنما هو فى الغالب والأكثر من صنع التفكير اليهودى وتخطيطه.

إنه منذ اللحظة الأولى التى أشرف فيها نور الإسلام، ومنذ الساعة التى وصل فيها النبى محمد ﷺ إلى المدينة واليهود يكيدون للإسلام ويتربصون بالنبى ويبثون من الأراجيف وينشرون من الأكاذيب ما تستهدف تشكيك الناس فى صدق النبى ﷺ والتنفير من الدعوة الإسلامية، وبالرغم من التسامح الذى عامل به النبى ﷺ اليهود فإنهم لم يقابلوا هذا إلا بالحقد والحسد، فعندما ألقت (يثرب) كلها بزمام حكمها إلى شخصية سيدنا محمد ﷺ إلا وقام هذا النبى على الفور بعقد معاهدة الدفاع المشترك والتعايش السلمى وعدم الاعتداء من أحد الطرفين على الآخر، وبرغم هذه المعاهدة المعقودة لكن اليهود ظلّوا يقاومون الدعوة الإسلامية ويثيرون المتاعب فى وجه حاملها، ومع ذلك قابل النبى ﷺ كل ذلك بحلم واسع وصبر جميل وتسامح عظيم حتى مع الذين تآمروا على حياته وقرروا اغتياله مرة بالحجر،

وأخرى بوضع السّمّ، وأخرى بدفع الأموال لمن يغتاله، ومع كل هذا ذهب فى التسامح معهم إلى أبعد الحدود فكان يعفو ويصفح ويمد يده بالمودة إليهم فلم يقابلوا هذه الأخلاق الكريمة إلا بالتآمر والغدر، فكان لا بد من وقفة فيها الجد، يسمعهم فيها لغة السيف لأنهم دائمًا يرتكبون أشنع الجرائم وأخس صور الغدر خاصة عندما خانوا المواثيق، ونكثوا العهود، وداسوا على شرف الكلمة، وتعاهدوا مع الغزاة من قريش وغطفان وانضموا إليهم فى غزوة الأحزاب، وخططوا وبدقة فى وقت الأزمة الشديدة، وفى الساعات الحرجة لضرب المسلمين من الخلف خيانة وغدرًا مستهدفين القضاء على الإسلام واستئصال شأفته وإبادة المسلمين إبادة تامة غير مبالين بما أعطوا من عهد ولا ملتفتين إلى ما وقّعوا عليه من مواثيق، لكن من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فإن المصير الذى خططوه للمسلمين ليدفعوهم إليه ويبيدوهم ارتدّ عليهم أنفسهم فكان جزاؤهم الإبادة؛ لأن غزوة الأحزاب انتهت والحمد لله لصالح المسلمين فكانت العقوبة التى تتناسب مع اليهود هى (الخيانة العظمى)، ولا بد أن ينالوا جزاءهم عليها، ولك أن تتأمل ما نزل باليهود لتعرف أن الخائن لابد أن ينال جزاءه مهما طال الوقت.

إن الدروس المستفادة والتى تبرز أمام أعيننا من وراء الغيب توضح لنا أن الرسول ﷺ لم يستعمل السيف إلا بعد أن استعمل كل الوسائل الممكنة من إدارة الحوار و التفاهم بالمعروف واستعمال العقل، لأن الإسلام دين سلام يمقت الحرب لأنها مدمرة للأحياء مهلكة للحرث والنسل، وهذه الدروس يجب أن نستفيد منها فى وقتنا الراهن وأن

نعتمد على الله وعلى أنفسنا وأن نحلل غزوات الرسول لنستفيد منها وأن نضع فى اعتبارنا أن اللغة الوحيدة التى يفهمها اليهود هى لغة القوة ولن تحل مشكلة فلسطين إلا بالسيف .

فما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة . أما المؤتمرات الدولية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن فهذه تحكمها قوة خفية فهى كذلك تحتاج إلى قوة ، كذلك لا تحل القضية بالمؤتمرات المحلية المشحونة بالتشنجات والصراخ والعويل والخطب والقصائد فكل ذلك فى الهواء يضيع على الرمال والصخور ، ولعلنا نذكر المثل العربى (أشبعتهم شتمًا وراحوا بالإبل) .

ونحن لا ندرى لمصلحة مَنْ هذا التهافت والاستخزاء ، ألم نأخذ العبرة من الدول التى وجدت نفسها بعد اندحار الشيوعية فنهضت من كبوتها وأظهرت تنكرها للاتحاد السوفيتى وبدأت هذه الدول تستعيد شخصيتها كالصين ورومانيا وألبانيا والشيشان وكوسوفو وغير ذلك .

إن الأمة التى لا تحترم نفسها لا يمكن أبدًا أن تحترمها الأمم ، والمسلمون اليوم والعرب معهم تنكروا لعقيدتهم وتناسوا حضارتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد ، وزرعت الدول الأجنبية دولة إسرائيل - التى لم تقبلهم أى دولة- فى أرض العرب والمسلمين ، ولو أن العرب والمسلمين تمسكوا بدينهم وتدارسوا حضارتهم ، وعرفوا تاريخ آبائهم وأجدادهم لفرَّ اليهود أمامهم ، وقالوا عن العرب والمسلمين ما قاله اليهود من قديم الزمان (إن فيها قومًا جبارين) .

إن رسول الله ﷺ خاطب اليهود باللغة التى يفهمونها وكان من حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ونحن عرب ومسلمون فإن عدنا إلى ديننا عادت إلينا قوتنا وهابنا العدو وخاف فـ (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). وغزوة الأحزاب وما تبعها من غزوة بنى قريظة كانتا السبب فى تصفية العنصر اليهودى من المدينة المنورة، وتم تطهير تلك البقعة الطيبة الطاهرة من شرور هذا النوع الخبيث من البشر الذى لا يعرف إلا الشر.

نقدم ذلك مذكرين الأمة بأمجادها فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

هذا وبالله التوفيق.

منصور الرفاعى عبيد

القاهرة فى غرة رجب الحرام ١٤٢١هـ

غزوة الخندق (الأحزاب)

من الحوادث العظام والأمور الهامة التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ غزوة الخندق، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة الأحزاب، لذلك فإن بعض المؤرخين يسميها «غزوة الأحزاب» وهذه الغزوة حدث فيها بين المؤرخين خلاف فى زمن تحديدها والرأى الصحيح الذى يميل إليه الكثير وتؤيده الوقائع أنها وقعت فى السنة الخامسة من الهجرة، وأنها كانت فى شهر شوال، ولقد اهتم المؤرخون بهذه الغزوة لأن أثرها كبير فى تاريخ المسلمين، ولها مقدمات ونتائج فهى :

أولاً : تبرز أمامنا صفحة من تاريخ اليهود وتكشف عن أسلوبهم الدنىءفى إثارة الأحقاد وتسخير قيمهم لخدمة مصالحهم وقضاء مآربهم حتى ولو أدى الأمر إلى التجسس والإغراء بالمال.

ثانيًا : تكشف هذه الغزوة عن قوة الإسلام وكيف أن أصحاب العقيدة يصبرون على البلاء والجوع.

ثالثًا : تكشف لنا عن شخصية الرسول ﷺ فى قيادته الحكيمة وفى صموده أمام طواغيت الشر وأولياء الشيطان ثم إن المسلمين لو تعرّفوا على غزوة الأحزاب واستفادوا من دروسها ثم صدقت عزيمتهم لأبصروا طريق الحق ووصلوا إلى بر السلام.

بداية المعركة

كانت بداية هذه المعركة لؤم اليهود وخبثهم، لأنهم سماسرة حرب وتجار أسلحة، ثم هم يعملون على إشعال الحروب فى كل مكان ليربحوا حتى ولو كان من وراء ذلك دمار العالم كله، لذلك، يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة فى بداية معركة غزوة الخندق لنؤكد بالدليل على ما نقول:

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، أظهر اليهود الود لهذا النبى العظيم، لذلك كانت أول صيحة مبشرة بقدوم النبى ﷺ يسمعها أهل يثرب كانت من رجل يهودى فهو الذى وقف على جبل خارج يثرب يصيح بأعلى صوته: يابنى «قيلة» هذا جدكم قد جاء، وقيلة هى جدة للأنصار جميعًا، من هنا كانت العلاقة بين النبى ﷺ وبين اليهود تتسم بالود وعلاقة الجيرة القائمة على التعاون والألفة، وقد أقرهم النبى ﷺ على دينهم وأمَّن أموالهم، وكتب كتابًا «معاهدة» بينه ﷺ وبينهم، شرط لهم واشترط عليهم، إلا أنهم لم يحفظوا هذا الود ولم يقوموا برعايته، وحاولوا مرارًا وتكرارًا أن يستميلوا رسول الله ﷺ إلى جانبهم ويطووه تحت جناحهم، حتى لا يكون له رأى إلا بعد مشاورتهم والأخذ برأيهم، والغرض من ذلك، أن يدعموا مركزهم فى يثرب، ثم يكون لهم الهيمنة على الجزيرة العربية، وقد حاولوا ذلك معتمدين على:

أ - أنهم أهل كتاب، موحدون، لهم نبى ونبيّهم تلقّى وحى السماء.

ب - رسول الله ﷺ كان يصلى إلى بيت المقدس وقد غرهم ذلك وأقنعوا أنفسهم بأنه ما دام يصلى إلى قبلتهم فهو معهم - وقد كان النبى ﷺ قد استقبل بيت المقدس فى صلاته ستة عشر شهراً - فكان اليهود يقولون ما عرف محمد ولا أصحابه قبلتهم حتى هديناهم نحن إلى قبلتنا .

جـ - كان اليهود يجلسون مع رسول الله ﷺ ويذكرون أن مقام الأنبياء السابقين كان ببيت المقدس ، ويقولون إن كان رسولاً حقًا فلِمَ لم يصنع مثل ما صنع من سبقه من الأنبياء ويتخذ من بيت المقدس مكان إقامته .

إن النبى ﷺ الذى أنعم الله عليه بعمق الفكر وبعد النظر لم يخف عليه لؤم اليهود ، لذلك كان يضرب بآرائهم عرض الحائط ويحاول من جانبه ﷺ أن يبين لهم حسن النية ، لكنهم تمادوا فى غيهم حسداً وبغيا ، فهم يعلمون أن النبى صادق فيما يُبلغ ، وأنه على الحق ، وقد قال القرآن عنهم حيث كشف عن طويتهم الخبيثة : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة : ١٤٥ ، ١٤٦] .

إن العقل السليم لا يقبل أبداً أن تنزوى الرسالة العالمية وتتقلص لتكون تحت سيطرة اليهود ، من هنا غاظهم عدم استجابة النبى ﷺ وأحس اليهود بخيبة أملهم وفشلهم فى تخطيطهم فلجأوا إلى نوع

آخر من الكيد للدين الجديد، فقاموا بحملة قوية من التشكيك ونشر الإشاعات ضد الدين الجديد، لما قرأ رسول الله ﷺ ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قالت اليهود عند سماعهم لهذه الآية: إن ربَّ محمد افتقر، فهو يسأل عباده أن يقرضوه، وقال بعضهم لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه، ما بنا إلى الله من حاجة، لكنه هو الذى يحتاج إلينا، فهو فقير ونحن أغنياء ولن نقرضه أبداً، فغضب أبو بكر رضى الله عنه من هذا الكلام وضرب اليهودى، ونزل فى هذا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[آل عمران: ١٨١]. ثم إن حملة التشكيك من جانبهم لم تتوقف حيث كانوا يذهبون إلى النبى ﷺ ويسألونه عن أمور غيبية، كقيام الساعة، كيف ومتى؟ وعن وحدانية الله وصفاته وعن الروح، وعن ذى القرنين إلى غير ذلك من الأسئلة الحرجة التى كانوا يتفننون فيها ليوهموا الناس أنهم على علم ودراية وقدرة، وأن دينهم الحق وأن محمداً ودعوته ليسا على الحق، فلما فشلوا فى الأسئلة وعجزوا حيث كان رد السماء يفحمهم ووحى الله يعجزهم، ومحمد ﷺ فى خلقه وأدبه لا يقابل السيئة بالسيئة، لكنه يقابل السيئة بالحسنى، فهو المؤدب، المهذب، عف اللسان، الذى يتسم بالحياء وكفاه فخراً ما قاله عنه رب الأرض والسماء ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

إن الشر له أساتذة ولم تعرف الإنسانية فى تاريخها الطويل مثل اليهود أساتذة فى الإجرام والتخطيط له وإشاعته، ثم هم أهل تجسس وخيانة. فلقد حدث أنه بعد غزوة بدر خرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش ليغزو محمداً ﷺ فى مدينته فلما شارف المدينة خرج من الليل حتى أتى «سلام بن مشكم» سيد بنى النضير فاستأذن أبو سفيان على سلاّم فأدخله إلى بيته وقراه وسقاه ثم أعلمه ببواطن الأمور فى المدينة وأطلعه على مجريات الأحداث بها ودلّه على الأسرار كلها. ولقد كان يهود بنى قينقاع يواجهون النبى ﷺ بالتحدى ويقولون له بعد النصر الذى تحقق للمسلمين فى غزوة بدر «يا محمد إنا لسنا كقومك الذين لقيتهم ولا علم لهم بالحرب فأصبت منهم ما أصبت، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس» كما أن بقية اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ «يا محمد إنك لقيت قومًا لا يحسنون القتال لو نازلتنا لعرفت أننا نجيد القتال»، كما أن «كعب بن الأشرف» يظاهره «أبو رافع اليهودى» توجها إلى أهل مكة بعد غزوة بدر وأخذا ينشدان الأشعار فى قتلى بدر من قريش وبعد أن أظهرا المحبة لقريش أخذا يقولان الشعر فى تجريح نساء المسلمين خاصة أم الفضل بنت الحارث ثم رجعا إلى المدينة بعد علم رسول الله ﷺ بكل ما قالاه، كما أن يهود بنى قينقاع عملوا حيلة فى امرأة مسلمة تسببت فى كشف سوأتها، أما بنو النضير فقد خرج رسول الله ﷺ وتوجه إليهم ليبين لهم أنه يجب عليهم مراعاة العهد والوفاء به وينهاهم عن الخيانة وما أن جلس النبى ﷺ بجوار دار أحدهم حتى تآمروا على قتله، وقد علا سطح الدار «عمرو بن جحاش» وبين يديه صخرة

ليرمى بها على رسول الله ﷺ فتقتله؛ لكن الله أخبر حبيبه ومصطفاه الذى أسرع بالقيام والرجوع إلى المدينة.

هذه نبذة قليلة من مؤامرات اليهود وخسة طبعهم وعدم انقيادهم للحق؛ لأنهم عاشوا فى ضلال ووهم. يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، ولقد حفل التاريخ -وهو أصدق شاهد- بأعمالهم الخسيسة وتآمرهم المستمر.

دورهم فى غزوة الخندق

كان اليهود يرقبون الأحداث التى تجرى فى المدينة ويرون بأعينهم ازدياد المسلمين من حول رسول الله ﷺ وحب المسلمين الزائد لهذا النبى العظيم الذى يتمتع بطهارة النفس ونزاهة الغاية وشرف المقصد، ومن النصر الذى يتحقق له بين الحين والحين؛ لذلك بيَّت اليهود النية على أن يقوموا بدور خطير ويؤدوا لعبة تشعل النار فى الجزيرة العربية وتؤجج الحقد والبغضاء فى نفوس العرب جميعًا وبهذا يتم القضاء على محمد والعرب ويخلو الجو لهم، لذلك توجه وفد منهم يتقدمهم «سلام بن أبى الحقيق النضرى»، و«حُيى بن أخطب النضرى»، و«هوذة بن قيس الوائلى» وغيرهم كثير وكان غرض هذا الوفد أن يجمعوا العرب ويحزبوا القبائل ليقوموا مع بعضهم قومة رجل واحد على المدينة بمن فيها ويدمروها ويقتلوا المسلمين ويهلكوا حرثهم ويسبوا نساءهم ويسلبوا أموالهم، وهى خطة خبيثة جاءت فى وقت غير ملائم، وذهبوا إلى قريش وتعاهدوا معهم على الحرب، وكانت قريش تريد أن تثأر من محمد رغم أن الحروب السابقة أنهكتها لكن

مجىء اليهود إلى هنا وتعاهدهم معهم أوجد فى نفوسهم أملاً، لذلك وافقوا على الحرب، لكن «أبا سفيان» أراد أن يستوضح من اليهود سر تحركهم، وما هو الدافع لهم ليتعاونوا مع العرب الذين يعبدون الأصنام لذلك وجه السؤال الآتى إلى اليهود قائلا: «يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد «أفديننا خير أم دينه؟»، إن أبا سفيان ومعه العرب ظنوا أنهم سألوا «أهل الذكر» لأن اليهود يزعمون أنهم على دين موسى وأنهم على علم بميراث السماء، لذلك أقنعت قريش نفسها بأنها ستأخذ «الفتوى» من أهل الاختصاص، وفرح اليهود بهذا السؤال لأنهم سيشبعون رغبتهم فى خداع العرب، لذلك كانت الإجابة «بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه». إن اليهود لم يراعوا تعاليم التوراة التى تنفرهم من عبدة الأوثان لكنهم هنا لم يحفظوا حرمة التوراة وأهدروا الحق ووطأوا بأقدامهم كل مقدس وغال فى دينهم، وقد فرح المشركون بهذه الفتوى التى صادفت هوى فى نفوسهم، ولقد عاب على اليهود هذا المسلك واعتبره عاراً أحد مؤرخى اليهود واسمه (إسرائيل ولفنسون) الذى قال: «كان واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة قريش فى سؤالهم»، ثم يقول هذا المؤرخ بعد كلام طويل كما جاء فى كتاب تاريخ اليهود فى بلاد العرب: «كان واجب اليهود أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما

يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة» هذا كلام مؤرخهم «والحق ما شهدت به الأعداء» والقرآن الكريم ذكر هذا الحدث لما له من أهمية حيث يكشف عن الطوية الخبيثة والنفوس اللئيمة فيقول القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[النساء : ٥١ ، ٥٢]. هل حفظ التاريخ عن أحد من البشر أنه نزل فى مثل هذا المستنقع الخبيث اللئيم ، لقد فرحت قريش بهذه الفتوى التى دعمت الثقة فى نفسها بل وأعطتها حق الدفاع عن عقيدتها ، لذلك سألت قريش حُيى بن أخطب عن قومه من بنى النضير ومدى مشاركتهم فى هذه الحرب فقال حيى عن قومه : «أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم» ثم أخذ وفد اليهود يتجول فى الجزيزة العربية بعد أن استوثقوا من قريش فذهبوا إلى «غطفان» وقد أغرى اليهود قبيلة غطفان بأن لهم نصف ثمر خيبر ، لذلك وافق «عيينة بن حصن الفزارى» على المشاركة فى الحرب وكان زعيم غطفان وكتب إلى حلفائه بالمشاركة فى الحرب ، وقد أخذ وفد اليهود يمر على بنى مرة وفزارة وأشجع وكل من له ثأر عند المسلمين ، ولقد خرجت قريش فى أربعة آلاف مقاتل وكان معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ثم اجتمع معهم بنى سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع إلى غير هؤلاء حتى بلغ قوام الجيش عشرة آلاف مقاتل

مسلحين أفضل تسليح متخذين أقوى عدة وفى نيتهم أنهم سوف يستأصلون شأفة المسلمين بين عشية وضحاها .

موقف المدينة

لكى نتعرف على ما يجرى فى المدينة نتعرف أولاً على جغرافيتها ليتضح لنا ميدان المعركة ونتعرف على ما يجرى فى الساحة .

١ - جغرافية المدينة : هى محصورة بين جبلين ففى الجنوب الغربى يوجد جبل (عير) وفى أقصى الشمال يقع جبل (أحد) وعلى بعد من المدينة بما يعادل «٥كيلومتر» تقع مدينة قباء ، ثم تحيط الوديان بالمدينة من جهاتها الأربع - فكانت بيوت المدينة متلاصقة بالجبال بحيث يصعب على أى مهاجم للمدينة أن يهاجمها من أى ناحية إلا من الناحية الشمالية . وكان يهود بنى قريظة يسكنون فى الشمال الشرقى من المدينة وهى الجهة التى يسهل الدخول منها واليهود بطبيعة الحال ليسوا أهلا للثقة لأنهم ليسوا أهل وفاء بالعهد .

٢ - بعد هذه الدراسة المبسطة عن جغرافية المدينة وقد بلغت أنباء الحشود التى تحزبت لقتال المسلمين بعد تحرك وفد اليهود لهذا جمع النبى ﷺ أصحابه واستشارهم فوقف سلمان الفارسى وأشار على الرسول ﷺ بحفر خندق فى الشمال الشرقى أما بقية الجهات فهى مشبكة البنيان تحميها بعض الجبال وعلل سلمان رأيه بحفر الخندق بقوله : «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» وقبل رسول الله ﷺ هذه المشورة لأن فيها الخير ثم هى تحقق الآتى :

١ - تحفظ الأمة الناشئة وتدفع عنها سطوة هذا الهجوم العام.

٢ - كثرة الأعداء وكثرة العدة والعتاد فى أيديهم، والمسلمون ليسوا مثلهم.

٣ - ضعف المسلمين وبرودة الجو وقلة المؤونة، وقلة العدد فهم ثلاثة آلاف مقاتل.

٤ - علاوة على ما قلنا فإن حفر الخندق دليل لا يقبل الشك أن محمداً مع صحبه لا رغبة لهم فى القتال لأنه يؤدى إلى الخراب والدمار ومحمد مع صحبه يعملون من أجل السلام وينشدون السلام ولا يريدون الحرب أبداً لأن الحرب عند المسلمين ضرورة يلجأون إليها كدفاع عن النفس وهم مضطرون.

ثم قام الرسول ﷺ مع صحبه وأخذ يخطط لحفر الخندق وكان طول الخندق أربعين ذراعًا، وأقام على كل جزء مجموعة أوكل إليهم الحفر وأمرهم بتعريض الحفر وتعميقه ليصعب على الحصان الأصيل الذى يركبه فارس مدرب أن يقتحمه، ومن المعلوم أن الآلات الحديثة لم تكن قد عرفت فى هذا الزمان والأرض صخرية - لذلك عانى المسلمون معاناة كبيرة وتعبوا أشد التعب علاوة على أن المسلمين كانوا يعيشون فى فاقة ومسغبة وكانت تمضى الأيام الثلاثة ولا يأكلون، طعامهم وشرابهم الماء فقط، مع ضعف المعدات و مع قسوة البرد، لذلك كان الرسول ﷺ قدوتهم فهو أول العاملين بيده الشريفة فى الخندق كما كان ينشد أمامهم الأناشيد التشجيعية فيقول:

بسم الله وبه هدينا

ولو عبدنا غيره شقينا

يا حبذًا ربًا وحبً دينا

وكان المهاجرون والأنصار يسمعون نبيّهم العظيم وهو يرتجز بهذه الأنشودة ويحسّون في نبرات صوته الإصرار على العمل بالجد فكانوا يسرعون كذلك في العمل ولن يفرطوا في وطنهم أبدًا «فحب الوطن من الإيمان». . ولقد كانت هذه المشقة التي لقيها رسول الله ﷺ وأصحابه تعطينا الصورة عن هذا الرعيل الأول الذين صبروا ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا في سبيل الله، وكان سيدنا محمد ﷺ يحمل التراب بيده الشريفة كما كان يحفر الخندق بيده لذلك كان الله في عونهم ونصيرهم ومؤيدهم. وقد وقعت في غزوة الخندق آيات عظام نذكرها لتكون دليلا أمام أعيننا على فضل الله وكرمه وتأييده للمؤمنين الصادقين وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥١، ٥٢].

أدلة النصر في حفر الخندق

إن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا فهو وليّهم وبيده الأمر وهو على كل شيء قدير، ولقد أطلع الله نبيَّه على بعض الأسرار الكونية والأمور الغيبية ليبشر أتباعه الذين صدّقوا برسالته وتحمّلوا المشقة معه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وصبروا ابتغاء مرضاته، لهذا فإن «الطبري» يروي في تاريخه عن عمرو بن عوف يقول: «كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا، فحفرنا تحت ذباب حتى بلغنا الندى

فأخرج الله عز وجل من بطن الخندق صخرة بيضاء فشقّت علينا، وكسرت حديدنا، فقال الجمع لسلمان الفارسى، ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبّة تركية فقال يارسول الله، بأبينا أنت وأمنا خرجت صخرة بيضاء من الخندق فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما نحيك فيها قليلاً ولا كثيراً فمرنا فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نجاوز خطك. فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان فى الخندق ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها - يعنى جبلى المدينة - حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية، وحدث مثل الأولى تماما، ثم ضربها ثالثة، وحدث ما حدث فى الأولى تماما، ثم أخذ رسول الله ﷺ بيد سلمان فرقى، فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال لهم: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا نعم يارسول الله ﷺ بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبِّر فنكبِّر ولا نرى شيئًا غير ذلك، قال صدقتم، فضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب كلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب

الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا - يبلغهم النصر - وأبشروا - يبلِّغهم النصر - وأبشروا يبلِّغهم النصر- فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق بار، وعدنا بالنصر بعد الحصر».

هذه هى البشريات والقائد العظيم هو الذى يعطى الثقة لجنوده ويغرس فيهم قوة العزيمة، المسلمون استبشروا وفرحوا، ولكن . هناك الطابور الخامس وهم «المنافقون» جلسوا إلى المسلمين يقولون لهم: «ألا تعجبون لمحمد نحن فى هذا الحصار، وفى هذا التعب والعناء ويحدثكم بما لا يملك ويمنيكم بالمستحيل!! يخبركم أنه يرى من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى والروم وصنعاء وأنتم حفاة عراة جياع يحيط بكم الخوف من كل جانب» ومن المعلوم لنا أولا أن المنافقين أخبث طوية من اليهود وأفسد عقيدة، لأن المثل قائل «اللهم اكفنى شر أصدقائى، أما أعدائى فأنا كفيل بهم» والمنافقون قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[البقرة: ١٤].

إن الحق سبحانه وتعالى سجل موقف المنافقين فى قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ

دُخلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾[الأحزاب: ١٢-١٩].

هذا هو الموقف فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أطلع حبيبه ومصطفاه على الخير الذى سوف يحققه المسلمون، وأن النصر مؤكد لأنه من عند الله ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠].

ومع هذه البشريات العظيمة والخير المؤكد من رسول عظيم، لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا الحق والصدق فى نفس الوقت يفضح الله أمر المنافقين الذين تكلموا سراً واندسوا فى صفوف الجماعة المؤمنة يثبطون المؤمنين الصادقين ويحاولون بكل طاقاتهم أن يسهموا فى خذلان المسلمين لأنهم طابور خامس يعمل على الفساد والإفساد.

آيـة أخرى

إن الآيات التى ظهرت فى حفر الخندق برهان صادق على صدق النبى محمد ﷺ الشخصية المتواضعة العظيمة «حدث جابر بن عبدالله قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: «هذه كدية عرضت فى الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر، لأننا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل» أى سارت الكدية رملا سائلا، رواه البخارى. يقول ابن إسحاق عند هذه الرواية «إن الرسول ﷺ دعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، يقول من حضر وشاهد، فوالذى بعثه بالحق نبيًا انهالت حتى عادت كالكثيب لا ترد فأسًا ولا مسحاة».

أرأيت أنوار النبوة وإشراقات الخير وبشائر النجاح فى هذا العمل العظيم من نبى عظيم أيده الله بالحق وأجرى الخير على يديه؟!.

بركة الطعام

بعد البشريات العظيمة التى أجراها الله على يدى حبيبه ومصطفاه حدث أمر آخر، البرد شديد وقارس ولا طعام حتى الماء يعثرون عليه بشق النفس فهل يا ترى، يتركهم الله فى هذه الحال فيكون، برد، وتعب، وجوع؟ أم أن رحمة الله تكون منهم قريبة؟ لأنه سبحانه وتعالى يتولى الصالحين، تعالوا نقرأ ما رواه البخارى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال: «لما حفر الخندق رأيت بالنبى ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتى فقلت هل عندك شىء؟ فإنى

رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا فأخرجت إلىّ جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغى - أى أن زوجته فرغت من طحن الشعير وهو فرغ من ذبح البهيمة - وقطّعْتها فى برمتها ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت - أى زوجته- لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه - أى أن الطعام قليل- يقول جابر - فجئته ﷺ فساررته، فقلت يارسول الله، ذبحنا بُهَيْمة لنا وطحنّا صاعًا من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبى ﷺ فقال: يا أهل الخندق إن جابرًا قد صنع لنا سُورًا، أى ضيافة، فحى هلا، بكم، أى هلمّوا مسرعين، فقال رسول الله ﷺ لجابر لاتنزلن برمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجئ فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت بكَ وبكَ!! فقلت قد فعلت الذى قلت، فأخرجت لنا عجينًا فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال ادع خابزة فلتخبز معى واقدحى من برمتكم ولا تُنزلوها، وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو، قال ابن حجر فى فتح البارى «وهم ألف» أى الذين أكلوا، هذه رواية البخارى وهو من هو فى علو قدره ودقته فى نقل الرواية وضبطه للحديث من ناحية الرواة إذًا الحديث صادق والتواتر فى نقله أكبر شاهد على صدق ما نقول.

كذلك بشير بن سعد له ابنة هى أخت النعمان بن بشير كانت تحدث الناس كما نقل عنها أن أمها «عَمْرةَ بنت رواحة» دعتها فتقول فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ثم قالت أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك

«عبدالله بن رواحة» بغذائهما قالت: فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى فقال: تعالى يابنية ما هذا الذى معك؟ فقلت: يارسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد، وخالى عبدالله بن رواحة، قال هاتيه، قالت فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده اصرخ فى أهل الخندق أن هلمّوا إلى الغداء فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب».

وصدق الله العظيم وصدق رسولنا الكريم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق: ٢، ٣].

داخل المدينة

رسول الله ﷺ قائد عظيم له خبرته وبصيرته النافذة، كان يعبئ كل قواه لحفر الخندق، ومع ذلك كان فكره فى المدينة يبعث بعيونه يتعرف على أحوالها وما يدور فيها خاصة وأن النساء والشيوخ والأطفال لا بد أن تكون لهم حماية، فكان يبعث بين الحين والحين من يدخل الأمن على نفوس هؤلاء ثم يعود سريعًا لأرض المعركة. كما أن الأطفال الذين لم يخرجوا إلى أرض المعركة كانوا ينظرون إلى أرض المعركة ويتجولون فى شوارع المدينة يظهرون أنهم رجال وأنهم يحمون النساء والشيوخ، وقد كان رسول الله ﷺ أمرهم أن يدخلوا الحصون، وكان على المدينة عبدالله بن أم مكتوم يؤذن ويقيم الصلاة

ويصّلي بمن حضر، وقد عسكر الرسول ﷺ بجوار جبل سَلْعَ والخندق بينه وبين القوم، وكان المسلمون أثناء الحفر جعلوا التراب والحجارة التى خرجت من الحفر ناحية المشركين لتعوق تقدمهم، وكان عدد جند المسلمين الثلاثة آلاف مقاتل وعدد المشركين عشرة آلاف، وفى داخل المدينة بعد أن خرج الرسول ﷺ كانت «بنى قريظة» إحدى قبائل اليهود يسكنون شرقى المدينة، ولأنه كان بين رسول الله ﷺ وبينهم عهد وعقد أمان ومعاهدة ألا يخونوا ولا يغدروا بالمسلمين، لذلك لم يجعل الخندق يصل إليهم. إلا أنه مع ذلك كان يتخوف من هؤلاء اليهود وليس يغيب عن رسول الله ﷺ أنهم يمتلئون عليه حقدا وحسدا وكراهية له ولأصحابه، لهذا كان يتخوف من جانبهم، ولم يشأ أن يفصح، وقد وقع ما تخوف منه رسول الله ﷺ فقد جاء عدو الله حيى بن أخطب وهو من بنى النضير وكان الرسول ﷺ قد أجلاهم عن المدينة فتحايل حتى دخل وأتى «كعب بن أسد» وهو من بنى قريظة، وهو الذى كتب العهد والعقد مع رسول الله ﷺ فلما أحس كعب بن أسد بحيى بن أخطب داخل حصنه وأغلقه عليه وأخذ حيى بن أخطب ينادى على كعب ويقول: ويحك افتح لى إنك امرؤ مشئوم فيقول كعب: لن أفتح لك لأننى عاهدت محمداً ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا، وبعد حديث طويل فتح كعب الباب ودخل حيى وهو يقول: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر هذه قريش قادتها وسادتها وغطفان وغيرهم وكلهم قادة وسادة عاهدونى على ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، وكان كعب يقول لحيى دعنى على ما أنا عليه، فإن محمداً أوفى الأوفياء

وأصدق الصادقين، ومازال كعب بن حيى حتى وافق على نقض العهد.

وصول هذا النبأ إلى رسول الله ﷺ

عرف رسول الله ﷺ بأن بنى قريظة خانت العهد فى وقت عصيب لأن المشركين أصبحوا على مرأى العين وأن بنى قريظة فى ظهرهم وهناك ثغرة لو عرفها المشركون لتسللوا منها وهنا تكون الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى إذاً فلابد من عمل يحفظ الكيان الاجتماعى للمسلمين، لكن. كيف!! والموقف خطير ينذر بالشر يصوره القرآن الكريم فى قول الحق: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾[الأحزاب: ١٠، ١١]. لكن القائد العظيم لا يقف أمام الأحداث مكتوف اليد مرعوش البدن مهزوز الفكر، خاصة إذا كان القائد نبى الله روسوله «محمد العظيم».

لذلك تصرف بسرعة فبعث بوفد يتفاوض مع اليهود ويتعرف منهم أسباب الخيانة وكان على رأس الوفد. (سعد بن عبادة) سيد الخزرج، و(سعد بن معاذ) سيد الأوس ومعهما عبدالله بن رواحة، وغير ذلك من الشخصيات المتميزة فى النقاش وإدارة الحديث، وقد أوصاهم الرسول ﷺ أنه بعد المفاوضة إن تمسك اليهود برأيهم فلا يعلنوا ذلك على المسلمين حتى لا يفتوا فى عضدهم ويضعفوا من

روحهم المعنوية وإن كان اليهود مازالوا على العهد فليعلنوا ذلك على الناس، لتقوى الروح المعنوية ويطمئن كل واحد على نسائه وأولاده وماله، وتحرك الوفد إلى اليهود فوجدوهم على أخبث صفة وأخس خلق «الغدر» فلقد غدروا وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد، وحاول سعد بن معاذ أن يثنيهم عن موقفهم وأن يعيدهم إلى الصواب خاصة وأنه من حلفائهم فى الجاهلية، لكنهم تمردوا عليه ورفضوا أن يسمعوا كلامه ولجوا فى عداوتهم وتوقحوا بطغيانهم وشتموا سعداً وسبُّوه. لكنه قابلهم برفق وتلطف وقال: «إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم النفير أو أَمَرَّ منه» هنا تقدم سعد بن عبادة وأراد أن يحسم الموقف وقال لليهود: «غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن» لكنهم زادوا فى الوقاحة، وسعد بن معاذ - كما وصفه عارفوه- رجل فيه حدة لكنه فى هذا الموقف اتسم بالهدوء وكانت الكلمات تخرج من شفتيه خفيفة النبرة، مرة الإيقاع. تقطر قساوة الوعيد من خلال ذلك النصح الموءود الذى يوجهه إلى اليهود لكن فات أوانه وانطفأ كل أمل فيهم. إن سعد بن معاذ شعر بأنه فى هذا المرقف جرحت كرامته لذلك سكت. لكن ضميره لم يسكت، ووقف ساكنا ينظر بعيونه التى تتوسل إليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، لكن كيف وهم يهود؟! من هنا لم يملك سعد إلا أن يرفع يديه إلى السماء ويقول مناشداً ربه:

«اللهم لا تمتنى حتى تُقِرَّ عينى من بنى قريظة».

ورجع الوفد. ثم قالوا كلمة لرسول الله ﷺ «عضل والقارة» أى أن اليهود غدروا بنا كما غدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

القائد لا ييأس فعنده أمل ممتد وثقة فى الله لا حد لها لذلك التف الرسول ﷺ بثوبه ونام، وقد اشتد على الناس الخوف والبلاء حين رأوه فعل ذلك لأنهم عرفوا أن الوفد بقيادة السعدين لم ينجح فى أداء مهمته، لكن الرسول ﷺ سرعان ما نهض ورفع رأسه إلى السماء وقال لأصحابه: أبشروا بفتح الله ونصره وتقدم إليه أحد الصحابة كما يروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد قال: «قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شىء تقوله قد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا.

تخطيط محكم

القائد الحكيم دائمًا يتصرف حسبما تمليه الحاجة ويتطلبه الموقف لذلك وزّع الرسول ﷺ جنده على:

١ - طول الخندق، لأنه كان يتوقع الهجوم فى كل لحظة، لذلك يخشى أن يأخذه المشركون على غرة ويهاجموه ليلا أو نهارًا، لذلك احتاط للأمر وأقام الحراسة الدائمة على طول الخندق، وقد علم أصحابه كلمة السر بحيث يتعارفون بها فى ظلمات الليل ولا يقتل بعضهم بعضًا وهذه الكلمة هى «هم لا ينصرون» أرأيت الدقة والتنظيم والمهارة.

٢ - طائفة أخرى من المسلمين تحرس المدينة خوفا من أن يقوم يهود بنى قريظة بفتح ثغرة للمشركين، فأرسل بجند ليأمنوا هذا الجانب وكانت كلمة سرهم «الله أكبر».

٣ - فرقة أخرى تحرس النبى ﷺ مع الإحاطة بأن العرب تنفر من القتل غدراً وغيلة وتعده دناءة وعارا، لكن اليهود يعدون الغدر شرفًا وهو يتخوف منهم.

٤ - كان اليهود قدموا وعودا وعهودًا إلى غطفان أن لهم نصف ثمر خيبر، إذًا هؤلاء قوم مأجورون بالمال، فهم يغامرون بالحرب فى سبيل الحصول عليه، لذلك أرسل إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف من فاوضهما على أن يرجعا بجيشهما ولهم ثلث ثمار المدينة وقد فرح قادة غطفان بهذا العرض لأنهم لن يخوضوا حربًا وسوف يأخذون ثلث ثمار المدينة وبعد أن تمت الموافقة على ذلك أرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة باعتبارهما قيادات شعبية لهما مكانة سامية فى نفوس الجماهير واستشارهما فى ذلك قبل أن يوقع على العقد مع غطفان فقال السعدان: يارسول الله إن كان ما تصنعه أمر تحبه وافقنا عليه وإن كان شىء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أم هو شىء تصنعه لنا؟ فقال: بل هو شىء أصنعه لكم لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال سعد بن معاذ: يارسول الله كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمر المدينة إلا قرى أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فَسُرَّ رسول الله ﷺ لذلك وقال له: أنت وذاك، وقال لعيينة والحارث انصرفا فليس لكم عندنا إلا السيف.

هذا التخطيط المحكم وهذه الدقة والانضباط على قيم الوفاء لله والأدب مع رسول الله ﷺ كان لكل ذلك ثمرته ونتائجه التى حققت النصر المبين.

الموقف الصعب

عسكر النبى ﷺ بجنده وجعل ظهر جنده إلى جبل سلع، وأصبح المشركون أمامه بمرأى العين، والمشركون عندما رأوا الخندق ولا علم لهم به كان فى نظرهم أحدث سلاح يظهر فى معركة ضخمة كهذه، ولقد انبهر المشركون بهذا الحدث غير المسبوق، لذلك قال أحدهم «يا محمد من أعلمك بهذا؟» وقال آخر «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها».

لقد اشتد الخطب واستبد الخوف وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وعظم البلاء على المسلمين، لذلك بدأت الشائعات تتردد على ألسنة المنافقين، لأن النفاق ظهر عند ضعاف الإيمان وبدأ يظهر فى كلامهم حتى قال أحدهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»، ثم إن المنافقين فكروا وانتهى تفكيرهم إلى أن قالوا لبعضهم: «لابد أن ننسحب من المعركة». وهنا يظهر الموقف العصيب والامتحان القاسى، لأن المعركة القاسية على وشك الوقوع، ولقد تآزرت قوى الكفر، المشركون واليهود على إبادة الدولة الإسلامية، فى نفس الوقت بدأت تظهر دعوة انهزامية تلبس لبوس النصح وتتخذ سمت الإشفاق على المؤمنين، وبدءوا يتفننون فى انتحال المعاذير ويلبسون هذه المعاذير ثوب المصلحة، فيزعمون أن بيوتهم غير حصينة فيخافون عليها من

اللصوص فى نفس الوقت هى ضعيفة البنيان غير متماسكة يسهل هدمها والدخول إلى بقية البيوت منها، لكن الحق سبحانه يبين لنبيه ومصطفاه أن هذه حجج واهية تكشف عن طوية نفوسهم الخبيثة فهؤلاء الذين يستأذنون منك قد استجابوا لمن فى قلوبهم مرض وهم المعوقون «النفعيون المصلحيُّون» إيمانهم ضعيف فى قلوبهم مرض زاعمين أن وعد الرسول لهم خداع لذلك هم يُخذِّلون، و يشيعون الخوف والضعف فى جيش المؤمنين يقول الله تعالى فى بيان هؤلاء وموقفهم:
﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

إن المنافقين لم يقفوا عند حد هذه الوساوس المملوءة بالسوء بل إنهم تجاوزوا الحد وأذاعوا ذلك فى الناس، والغرض، تيئيس الناس وزعزعة ثقتهم فى الله، ثم إن نداءهم «يا أهل يثرب» دعوة إلى ردة يريدون بها شحن المشاعر باللغة القديمة، فهم يريدون طمس المشاعر الجديدة، لأن «يثرب» عاشت فى أذهان الناس أيام الكفر والشرك، ولم يقولوا «يا سكان المدينة» لأن هذا الاسم ولد فى ظل الإسلام لذلك نجد أن المنافقين يلعبون على الأوتار البالية، إن المنافقين يريدون الفرار من أرض المعركة لأنهم يؤمنون أن ما يجرى على بيوتهم فى المدينة يجرى على بيوت المسلمين جميعًا، لكن المرض الذى فى قلوبهم بسببه فتنوا فى دينهم وظهر موقفهم المتخاذل وهذا يدل على صعوبة الموقف الذى عاش فيه المسلمون، لأننا نستطيع أن نقول بلغة العصر تصدع فى الجبهة الداخلية، ثم عدو متربص يبث عيونه ليتعرف على أماكن الضعف، وما أن ظهرت الدعوة من المنافقين إلا وقد استعد المشركون لخوض المعركة.

المعـــركة

كانت الساعات تقترب من بداية المعركة والأيام تمر بطيئة الخطى ، وكانت الأيام فيها مناوشات ورمى بالنبال والذى يحدث ما هو إلا حصار ، والمشركون يمرون على الخندق حتى وجدوا مكانا ضيقًا فيه لذلك اقتحموا هذا المكان بخيلهم وتحرك فريق من المسلمين بقيادة على بن أبى طالب ليسدوا الثغرة فى وجه هؤلاء ، وكان يتقدم فريق المشركين «عمرو بن عبد ود» الذى كان يختال ويجول بفرسه وينادى هل من مبارز؟ فقال على بن أبى طالب أنا له يارسول الله ، فقال له النبى ﷺ : اجلس فنادى عمرو ، ألا رجل يبارزنى ، أنتم تزعمون أن لكم جنة من قتل منكم دخلها فَلِمَ لا تبارزوننى؟ فوقف «على بن أبى طالب» وقال أنا له يارسول الله فقال : اجلس وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالصبر ويأمر «عليا» بالجلوس ، لأنه ﷺ أراد أن تزداد الحماسة فى قلوب المسلمين وأن يتأهب المبارز للقاء هذا الرجل بثبات وحذر لأن اللقاء الأول من يكسبه كسب المعركة ، وهذا بعد نظر فى القيادة ، لذلك وقف عمرو للمرة الثالثة وهو يختال وينادى ويقول :

ولقد بُححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز
ولذاك إنى لم أزل متسرعًا قبل الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : يارسول الله أنا له فقال : إنه عمرو!!

فقال: على، وإن، فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه على وهو يقول:

لا تعجلنَّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

فى نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عن الهزاهز

فنظر عمرو إلى على وقال: من أنت؟ قال: أنا على، قال، ابن عبد مناف؟ قال: أنا على بن أبى طالب، وهنا وقفة يحسن بنا أن نذكرها قبل أن يرفع الإمام على كرم الله وجهه سيفه، قال يا عمرو: إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال عمرو: لا حاجة لى بذلك، قال فإنى أدعوك إلى النزال، قال عمرو، لمَ يا ابن أخى؟! فوالله ما أحب أن أريق دمك لما كان بينى وبين أبيك، فرد الإمام على وقال: لكننى والله أحب أن أقتلك، حَمىَ عند ذلك عمرو واشتد غضبه وسلَّ سيفه كأنه شعلة نار وما هى إلاَ لحظات عصيبة، المسلمون يشفقون على عَلىّ لأنه فتى ابن عشرين عاما لم يبلغ الثلاثين، وعمرو رجل مخضرم له حنكته وأسلوبه فى الكر والفر، لكن، ما هى إلا لحظات حتى ارتج المعسكر بالتكبير والتهليل الفرح والسرور لأن عليًا قتل عمرو الفارس المعلم أصبح صريع الذل يلتف بالتراب وقد ولَّى أصحابه الهرب من الثغرة التى جاءوا منها. ثم بدأت المناوشات والرمى بالنبال، وكانت هناك كتيبة يقودها خالد بن الوليد تريد هذه الكتيبة أن تنفذ إلى رسول الله ﷺ لكن «أسيد بن الحضير» تصدَّى لهذه الكتيبة فى مائتين من أشجع المسلمين فصدوا كتيبة خالد وردوهم

على أعقابهم خاسرين ، وبسبب هذا الكر والفر والمناوشات شُغل المسلمون عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فلما انتصف الليل وهدأ الموقف جمع الرسول ﷺ الصحابة وأمر بلالاً أن يقيم لكل صلاة وصلّى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات ولم يحدث أن صلى المسلمون أثناء المعركة لأن الأمر بالصلاة أثناء المعركة لم يكن قد نزل من عند الله»[1] .

بداية موفقة أعادت للمسلمين ثقتهم فى أنفسهم وازداد يقينهم بأن النصر آت كما وعد الله ورسوله .

موقف رائد غير مسبوق

القيادة الناجحة تحرص دائمًا على سلامة الجند وسلامة الوطن بأى ثمن ، لكنها لا تفرط أبدًا فى الحرية أو التفريط فى الأرض ، لذلك شاءت مشيئة الله العلّى الأعلى أن يكون طليعة النصر على يد الإمام على بن أبى طالب الذى قتل عمرو ولم يأخذ متاعه ، وقد وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه سؤالا للإمام على قائلا له : «هلاّ استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منها؟» قال على كرم الله وجهه «استحييت من ابن عمى أن أسلب هذا الرجل متاعه» .

هذه نماذج من البشر عظيمة رغم الحاجة والفقر ، لكن الغنى غنى النفوس ، وليس غنى الجيوب ، لذلك شاءت مشيئة العلى الأعلى أن يلعب رجل دورًا عظيمًا على مسرح الأحداث، هذا الرجل هو «نُعَيم

---

(١) يراجع كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ، وتفسير القرطبى .

ابن مسعود بن عامر الأشجعى» هذا الرجل ادخره الله ليكون جنديًا من جنود الإسلام، فقد تأخر إسلامه وجاء إلى رسول الله ﷺ وهو مُعَسْكر فى أرض الخندق، وقال يا رسول الله إنى أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، تفحص فيه الرسول ﷺ وعرف صدق كلامه فسكت لأن الموقف عصيب، أعاد «نعيم» الكلام على رسول الله ﷺ ثم قال مرنى بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فلو خرجت فخذَّلت عنا كان أحب إلينا من بقائك، فاخرج فإن الحرب خدعة»، وخرج نعيم وأدار فى نفسه كلام رسول الله ﷺ، ثم سأل نفسه هل يستطيع تخذيل هؤلاء جميعًا؟ قال الرجل لنفسه ولم لا فأنا ثقة عند كل الأطراف، يهود بنى قريظة ندامائى وأصدقائى، وقريش بينى وبين قيادتهم ود قديم، وأما غطفان فهم أهلى وعشيرتى، إذًا فهل أغتنم هذه الفرصة وأحقق الثقة التى أولانى إيّاها رسول الله ﷺ خاصة وأن أحدا لم يعلم بإسلامى؟ لم يضيع الرجل الوقت وذهب على الفور إلى بنى قريظة وجلس إلى كبرائهم وقال لهم: «تعرفون ودى لكم وما بينى وبينكم» قالوا صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم، إن قريشًا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، أما قريش وغطفان فأموالهم وأبناؤهم ونساؤهم فى بلد آخر فإن رأوا غنيمة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم وضمانًا على أن يقاتلوا معكم محمدًا حتى تناجزوه، فقالوا: نعم الرأى يا نعيم: لقد أشرت بالصواب.

ثم خرج إلى قريش وجلس مع أبى سفيان ورجال من قريش وقال لهم : تعرفون ودى لكم وفراقى محمداً ، وقد بلغت أمرا رأيت حقًا علىّ أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عليه قالوا نفعل ، قال : إن معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين «قريش وغطفان» رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم ، فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال لهم أنتم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم تتهموننى قالوا صدقت ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم منه ، وقد نجح فى بذر بذور الشك فى نفوس الأحزاب والحلفاء .

صنع الله

إنّ مع العسر يسرا . . إنّ الفرج مع الصبر ، وكلما اشتد ظلام الليل كان ذلك إيذانا بقرب الفجر ، لذلك أتم الله نعمته على المسلمين ووفق نُعيم للقيام بأداء دور رائد غير مسبوق ، وأتم هذا الدور على أكمل وجه ، وقد جاءت هذه «الحيلة» فى وقت اشتد فيه البرد وأصاب الأحزاب الإعياء وأوشكت أزوادهم أن تنفد ولابد أن يقوموا بأداء دور عاجل وهم لن يستطيعوا اجتياز الخندق إلا إذا تحرك اليهود من

الداخل وعملوا حركة تشغل المسلمين لذلك أرسل أبو سفيان «عكرمة ابن أبى جهل» فى نفر من قريش وغطفان وقالوا لليهود «إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا معنا للقتال غدا حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه فكان رد اليهود، إن غدا السبت وهو يوم لا نعمل فيه، ثم لن نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإنا نخشى إن خسرتم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركوننا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك، لما رجع عكرمة والوفد الذى معه إلى قريش وغطفان بما قاله اليهود قالوا: صدق نعيم فيما حدثنا به لكن قريشا وحلفاءها أرسلوا إلى اليهود مرة أخرى: «إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا»، فقال اليهود إن الذى ذكر لنا نعيم لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك تشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم، فأعادوا الرد على قريش: والله إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنا فرفضت قريش، ودب الخلاف بينهم، وهذا أول شىء فى سلم نجاح المسلمين بعد موقف الإمام علىّ.

جنود الله

بدأت الإشارات تتوالى لأن المسلمين صبروا صبراً جميلا ومع هذا الابتلاء الشديد كان الصبر لهم ضياءً، لقد تحزبت عليهم الأحزاب وغدر بهم اليهود فما ضعفوا وما استكانوا لإيمانهم القوى إن

الله يحقق لعباده الصالحين ما وعدهم من نصر «ومن أوفى بعهده من الله» إن الله سبحانه وتعالى لن يضيع أولياءه ولن يعجزه أعداؤه . . .

والرسول ﷺ كان يلح فى الدعاء يرجو من الله أن يعجل بالنصر ومن دعائه «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اللهم اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم» رواه البخارى، وقد استجاب الله لنبيه وللمسلمين الذين كانوا يلحون بالدعاء بقولهم «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا رواه الإمام أحمد، لذلك أرسل الله جنده، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأول الجند:

١ - الريح : هى جند من جنود الله وقد أرسلها الله شديدة الهبوب عاتية الإعصار على الأحزاب فقلعت خيامهم وأطفأت نارهم وحملت الحجارة وبدأت ولها أصوات تسمع من قريب وكأنها أصوات بشر يعرفها المشركون.

٢- نزلت الملائكة بأمر الله فخلعت الأوتاد وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض، وقذفت فى قلوب المشركين الرعب، وكبّرت الملائكة فى جوانب معسكرهم، فقال طليحة بن خويلد «أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء»[(١)].

إن الله سبحانه وتعالى ما كان ليذر المؤمنين الصادقين المخلصين فى هذه الحالة التى يصورها القرآن بقوله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا

---

(١) يراجع تفسير الكشاف للزمخشرى «سورة الأحزاب».

﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] . ثم إن الحق سبحانه يوجه نظر حبيبه ومصطفاه إلى أن المنافقين فى المدينة مازالوا يرجفون بالقول يثيرون الشائعات الكاذبة ويطلقون الأراجيف المصطنعة فألسنتهم بذيئة وعيونهم فاجرة ، فقل لهم يامحمد إذا لم تثوبوا إلى رشدكم وتقفوا عند حدكم وتنتهوا عن ترويج الشائعات فسوف نفرغ لكم وننكل بكم لأنكم لم تلتزموا الأدب يقول الله فى هذا : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب : ٦٠ ، ٦١] . أى إذا لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون الذين يثيرون الشائعات الكاذبة سنمكنك منهم يا محمد وسيقعون أسرى تحت يدك وليس لهم بعد الأسر إلا القتل لأنهم هربوا من ميدان المعركة وكانوا معوقين للمؤمنين ويعيشون بمشاعر كاذبة ، وهذه من بشائر النصر التى ساقها الله لحبيبه ومصطفاه حيث يمكن له فى الأرض ويطهرها من هؤلاء الأوباش .

استطلاع محقق

بلغت الأخبار إلى مسامع رسول الله ﷺ فأراد أن يستوثق ويتعرف وجه الحقيقة فأرسل برجل هو «حذيفة بن اليمان» ليتعرف الخبر وما ألمّ بالقوم من أمور وقد كانت الليلة التى بعث فيها الرسول ﷺ بحذيفة أشد ظلمة وأشد ريحا تحمل أصواتًا مثل الصواعق ، والظلمة شديدة لا يرى الإنسان كفّه فيها ، وعندما ندب الرسول ﷺ

حذيفة وقف وهو مرتعش لأن كساءه قصير ما يجاوز ركبتيه ويكاد لا يقوى على الوقوف من الضعف والبرد، وعندما عرف مهمته زاد فزعه لكن رسول الله ﷺ دعا له قائلاً: «اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته». يقول حذيفة: «فو الله ما خلق الله تعالى فزعًا فى جوفى بعد ذلك»، ويخرج الرجل وهو مطمئن على أنه فى حماية الله وفى ظل من بركة دعاء الرسول ويهدأ ويثبت ولم يعد يشعر بشىء ولم يشغله شىء إلا أنه يفكر كيف «يحسن سفارة رسول الله؟» وكان يتمتم مناشداً ربه بدعاء سمعه من رسول الله ﷺ «يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف همى وغمى وكربى فأنت ترى حالى وحال أصحابى». يقول حذيفة فلما وليت من عند رسول الله جعلت كأنى أمشى فى حمّام حتى أتيتهم»:

يقول الإمام النووى [1]: «يعنى أنه لم يجد البرد الذى يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبى ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبى ﷺ فلما رجع ووصل بعد أداء المهمة عاد إليه البرد الذى يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ».

يقول حذيفة: «فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ونظرت فإذا رجل أدهم ضخم يتلمس بيده النار ويمسح خاصرته، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فقام فقال: يامعشر

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢.

قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده فقلت مَنْ أنت؟ قال معاوية بن أبى سفيان ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى فقلت مَن أنت؟ قال عمرو بن العاص، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك القراع «الخيل» والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول ﷺ لى أن «لا تحدث شيئًا حتى تأتينا» ثم شئت لقتلته بسهم، وكان أدنى الناس منى بنو عامر يقولون يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم وإذا الريح فى معسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها.

يقول حذيفة: ثم خرجت نحو النبى ﷺ فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمّام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت راجعنى القُرّ وجعلت أقرف (أى راجعه البرد وكان يرتعد ويرتعش) فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلّى فيها فلم أزل نائمًا حتى أصبحت فقال لى «قم يانومان» وهذا الحديث ورد بروايات متعددة ونقرأ فى ذلك ما قاله ربنا: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب: ٢٥].

ذهب المشركون إلى بلادهم بالخيبة والفشل وقد أحاط الذل والخزى باليهود، والفضيحة والعار بالمنافقين.

أما المسلمون فقد أخذوا يرددون خلف نبيِّهم الكريم «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده». ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة راجعًا إليها والمسلمون من حوله وخلفه يحمدون الله ويشكرونه فهو صاحب الفضل والنعمة، ووضع المسلمون السلاح وكان دخولهم إلى المدينة (كما يقول ابن إسحاق) يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة.

انتصر المسلمون بلا حرب وإن كان قد وقع منهم شهداء، وذهب الأحزاب إلى بلادهم يجرون معهم الخزى والعار، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى حصونهم، ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة وكان هو والمسلمون قد وضعوا السلاح، وأراد الرسول ﷺ أن يستريح قليلا فدخل إلى بيت أم سلمة وأمر المسلمين أن يستريحوا كذلك حتى يستجمعوا قواهم، ولكن ما هى إلا لحظات حتى أتاه جبريل وقال له أوضعتم السلاح؟ أخرج إلى هاهنا وأشار إلى بنى قريظة، ونهض رسول الله ﷺ من فوره ولبس لباس الحرب وأمر مناديًا فأذن فى الناس لا يُصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة، فاستجاب الناس إلى داعى الرسول ﷺ وخرجوا إلى بنى قريظة واستخلف النبى ﷺ على المدينة عبدالله بن أم مكتوم.

سعد بن معاذ

شخصية شعبية عظيمة لها دورها العظيم منذ أن دخل فى الإسلام، ولقد أصيب فى غزوة الخندق حيث رماه رجل يقال له «ابن العرقة» فأصاب الأكحل، وهو عرق فى الذراع فقطعه، فرفع سعد

وجهه إلى السماء وقال: «اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة» وكانت هذه القبيلة اليهودية من حلفاء قبيلة سعد ومواليها، ذلك لأن سعداً من قبيلة الأوس، وكان الرسول ﷺ قد بعثه أيام الحصار إلى بنى قريظة وعندما نقضوا العهد واتفقوا مع الأحزاب (ذهب سعد يذكرهم بالحلف والمعاهدة والجيرة والصداقة) لكنهم شاتموه لم يرعوا حق الجيرة ولا لرسول الله ﷺ حيث نالوا منه أخبث نيل، وكان سعد دائمًا يتخيل لو سارت الأحداث غير سيرتها تلك فما هو مصير رسول الله ﷺ والمؤمنين؟ إنه يغمض عينيه لأن الصورة فظيعة والموقف أفظع من الكلام، وكان سعد قد أمر له الرسول ﷺ بخيمة فى المسجد ليعالج فيها وحتى يكون بالقرب من المسلمين ليزوروه، لذلك تخلف سعد فى المدينة فلم يخرج مع الجيش العظيم الذى يقوده النبى الكريم وقد ذهب ليحاصر بنى قريظة.

المحاسبة

اليهود فى المدينة عاملهم النبى ﷺ بالرفق والإحسان والمودة، وكان دائمًا يمد يد المودة إليهم لأنهم أهل كتاب إلا أنهم قابلوا ذلك بالإساءة والتجريح فى شخصية الرسول، ثم التشكيك فى الرسالة المحمدية ويحاولون بكل ما لديهم من أموال ونفوذ هدم الكيان الإسلامى، ثم كانت هناك حرب الشائعات ومحاولة اغتيال النبى ﷺ والتحرش بالمسلمين وتهديدهم بالحرب، بل زاد الأمر خسّة من اليهود مع استهتارهم بالمسلمين والاستخفاف بسلطانهم والتشهير

بنساء المسلمين ومحاولة الاعتداء عليهن، ولا أدل على ذلك من أن يهود بنى قريظة أعدوا خطة تآمر على المسلمين بأن يكون هناك غزو شامل يتلخص فى :

١ - الاتصال بزعماء العرب وقادة القبائل القوية ودعوتهم وإغرائهم بالمال لإنشاء قوة عربية وثنية وتتحد هذه القبائل فى جيش واحد .

٢ - أن يكون الهدف الرئيسى لهذه القوة الضارية غزو المدينة ومحو الكيان الإسلامى .

٣ - تذكير القبائل العربية بمن مات من آبائهم وأبنائهم فى غزوة بدر وأحد وما بينهما، والغرض من ذلك إثارة كوامن الحقد والبغض فى نفوس العرب ضد المسلمين .

٤ - إغراء العرب بأموال المسلمين وسلب أطفالهم ونسائهم وتلك غنائم عظيمة .

هذا هو المخطط الخبيث الذى وضعه اليهود ونال الموافقة التامة من قادة العرب وزعماء القبائل وكانت غزوة الأحزاب الرهيبة المخيفة وكان تمويل هذه القبائل بالمال من اليهود الذين ينفذون خططهم على إثارة الحروب وشراء الذمم حتى يصلوا إلى مآربهم من بسط نفوذهم على الجزيرة العربية، إلا أن الحق سبحانه وتعالى حال دون تنفيذ هذا المخطط الخبيث إذ رد كيد المعتدين إلى نحورهم وعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والاندحار بعد حصار للمدينة دام ما يقرب من شهرين ونجت المدينة المنورة من خطر الاحتلال .

بنو قريظة قبيلة يهودية تحركت بكل ما لديها ولم ترع ذمة الجوار ولم تحافظ على شروط المعاهدة المبرمة مع رسول الله ﷺ ومعهم والتى تنص على «وجوب التزام الفريقين بالتعايش السلمى والتعهد بعدم اعتداء أحدهما على الآخر». وكان المفروض طبقًا «لهذه المعاهدة» أن ينضم يهود بنى قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة عندما أحاطت بها جيوش الأحزاب، لكن الذى حدث من بنى قريظة غير ذلك فقد أعلنوا انضمامهم إلى الغزاة المعتدين فى تلك الأيام الرهيبة التى كان فيها مصير كل الكيان الإسلامى فى مهب العاصفة، وهذا غدر من بنى قريظة بحلفائهم المسلمين.

لكن اليهود لم يبالوا بشرف الكلمة، ولا بتوقيعهم على معاهدة التحالف، ولا مقدرين لما يترتب على ذلك الغدر الشنيع من نتائج خطيرة أساسها الغدر والخيانة فى حالة الحرب، ثم هم لم يستجيبوا لأحد زعمائهم «كعب بن أسعد» الذى ذكرهم «بأنهم لم يروا من النبى ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء بالعهد والوقوف بشرف عند الكلمة التى أعطوها للمسلمين فى عهد التحالف». لكن من الذى يستجيب لهذا النداء العاقل لواحد منهم، لكن الأحداث دائمًا كانت تدل على خبث معدنهم وعلى ماتأصل فيهم من لؤم وندالة، وأن العهود والمواثيق عندهم لا قيمة لها ولا احترام، ولقد أراد الرسول ﷺ وهو الكريم السمح الوفى بالعهد محاولة إصلاح اليهود فأرسل إليهم وفدا بقيادة سعد بن معاذ فذكرهم ونصحهم وحذرهم مغبة الإصرار على السير فى طريق الغدر والخيانة، إلا أنهم ردوا عليه ردًا قبيحًا وأعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن محالفتهم للأحزاب وأنهم لا

يعرفون محمداً وبالتالى فليس هناك عهد ولا حلف، ثم إنهم بدءوا يستعدون للهجوم على المسلمين من الخلف طبقًا للخطة المتفق عليها مع الأحزاب.

إلا أن الحق سبحانه وتعالى أفسد تخطيط هؤلاء جميعًا ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب: ٢٥].

إذًا هل ينتهى الموقف دون مساءلة اليهود على ما ارتكبوه. المفروض أن تكون هناك تصفية حساب وهذا ما يرشد إليه العقل السليم فلا بد من محاسبة يهود بنى قريظة على خيانتهم وغدرهم لأنهم بدل أ ينضموا مع المسلمين ليدافعوا عن المدينة كان العكس منهم حاولوا ضرب المسلمين من الخلف.

امتداد لغزوة الأحزاب

بهذا المسلك وبهذا الأسلوب فإن بنى قريظة يمثلون جناحًا عسكريًا ضد المسلمين فى وقت الحرب، وهى جريمة حربية وخيانة عظمى وإذا كان الأحزاب قد ولّوا مدبرين إلى مكة وهما «قريش وغطفان» فإن الجناح الثالث وهم اليهود سجّلوا بصنيعهم أخس وأشنع جريمة فى تاريخ الخيانة والغدر.

لهذا خرج النبى ﷺ إليهم هو وأصحابه لم يستريحوا بعد، وعندما ذهب المسلمون إلى بنى قريظة كانوا قد توقعوا من الجيش الإسلامى أن يصل إليهم ليحاسبهم على ما ارتكبوه ضد المسلمين، لهذا اعتصم اليهود بحصونهم، وكانوا يرتجفون فزعًا ورعبًا من المصير

المخيف الذى ينتظرهم على أيدى المسلمين جزاء غدرهم وخيانتهم، ولابد أن تكون هناك تصفية حساب وأن تتناسب العقوبة على مستوى الجريمة التى ارتكبها اليهود، وقد أصدر النبى ﷺ مرسوما تلاه على الجند مؤذن الرسول ﷺ وجاء فيه: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة» وكان صدور الأمر النبوى بالتحرك إلى منازل بنى قريظة بعد دخول وقت الظهر فى اليوم التالى لمعركة الأحزاب، وكانت منازل بنى قريظة تبعد عن المدينة عدة أميال وتقع جنوب شرق المدينة.

ولقد أطاع المسلمون أوامر قائدهم الأعلى ﷺ وحملوا أسلحتهم وتحركت الكتائب الإسلامية إلى معاقل اليهود، وقد حمل لواء النبى ﷺ على بن أبى طالب وقد كان فى مقدمة الجيش، وكان المسلمون يتحركون جماعات فلم يكونوا جيشًا واحدًا ولكن التعليمات التى صدرت من الرسول ﷺ «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» دفعت المسلمين للتحرك بسرعة ودون توقف وقد حانت صلاة العصر فى الطريق، لذلك ناقش الصحابة هذا الموضوع فوقف جماعة يؤدون صلاة العصر وجماعة أخرى أصروا على أن الصلاة فى بنى قريظة، لذلك صلى جماعة من المسلمين العصر فى وقته ومن تمسكوا بالنص غربت عليهم الشمس وصلّوا العصر بعد المغرب، و قد اعتبر النبى ﷺ صلاة كل من الفريقين صحيحة وأقر الجميع، واحترم النبى ﷺ بذلك وجهات النظر المختلفة فلم يعنف أحدا لأن هدف الجميع الالتزام بما أمر الله وبما أمر رسوله.

اليهود تتطاول على النبى

وصل على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى حصون بنى قريظة وعسكر حولهم إلا أن اليهود أسمعوا عليًا ابن عم رسول الله ﷺ من السب والشتم والقذف الشىء الكثير الأمر الذى أغاظ عليًا فتماسك على مضض ولم يرد عليهم فزادوا فى التطاول بقذف النساء الطيبات الطاهرات العفيفات «أمهات المؤمنين» ولم يحاول الإمام على أن يرد عليهم ويلتفت الإمام على خلفه فيرى النبى ﷺ مقبلا من بعيد، تحرك الإمام على نحوه واستوقفه على بعد من حصون اليهود وغرضه من ذلك ألا يسمع النبى ﷺ ما يتفوه به اليهود من سب فيه وفى نسائه.

وعرف النبى ﷺ ما فى عيون الإمام على، فقال لعلك سمعت منهم لى أذى؟ قال الإمام على نعم يا رسول الله، فقال ﷺ يا على «لو رأونى لن يقولوا من ذلك شيئًا» وتقدم النبى ﷺ ونادى على اليهود وحدد شخصيات من قياداتهم فلما ظهروا فقال لهم «يا إخوة القردة ويا عبدة الطاغوت هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته» وهنا بدأ اليهود فى التلطف والوداعة وأنكروا أنهم شتموا النبى ﷺ أو تطاولوا على نسائه، وكانوا يتكلمون فى ليونة الأفاعى لأن قولهم لين ويحاولون الإطراء على النبى ﷺ ويقولون «يا أبا القاسم متى كنت جهولا؟» وقد ظنوا أن ذلك سيساهم فى تخفيف عقوبتهم العظمى، لقد أحاط باليهود خطيئتهم وحاق بهم المكر السيئ وتبددت أحلامهم العريضة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وهم وإن تظاهروا باللين والوداعة فى هذا الموقف لكنهم كالأفاعى السامة الغادرة تتظاهر

بالبـراءة حتى تتـمكن وتبـدى مظهـرها الناعم اللين حـتى تقـتل من يداعبها .

العقلاء يتصرفون

بعض السم ترياق ، وقـد يكون فى السم الشـفـاء ، لـذلك ظهـر من هذه الأفاعى بعض العقـلاء كانوا قد أنكروا على اليهود اشتراكـهم مع الأحزاب واعتبروا أن ذلك خيانة وقد أعلن ذلك بعض اليهود على رأسهم «عمرو بن سعدى» وهو سيد من سادات بنى قريظة وزعيم من زعـمائهم وقـد أعلن على الملأ أنه متمسك بعهد رسول الله ﷺ ولن يخون المسلمين ، هذا الرجل اليهودى الوفى لقومه كان صاحب ضمير حى أراد أن ينقذ قومه من المصير المرعب الذى ينتظرهم ، لذلك سارع بعمل اجتماع عاجل حضره زعماء بنى قريظة وقال لهم : «إن محمداً لا يعادى أحدا إلا كان مصيره الخسران ، ثم قال لهم يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى وقد بشرنا به علمـاؤنا ثم اتجه إلى سيـدهم «كـعب بن أسعـد» وقـال له والتوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سيناء إنه العز والشرف فى الدنيا ، يعنى الدخول فى الإسلام» لكن اليهود شغبوا عليه وما هى إلا لحظات حتى حوصرت حصون اليهود من المسلمين ، لكن «عـمرو بن سـعـدى» عـاود الكلام مـرة أخـرى وقـال ياقـوم إذا كنتم قـد خنتم المسلمين ، ولـم تقبلوا الدخول فى دينهم فادفعوا الجزية واثبتوا على دينكم ، لكنهم صاحوا فى وجهه والغرور يملأهم نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه القتل خير من ذلك .

جزاء الإحسان إحسان

عرف المؤرخون جميعًا أن المسلمين عندهم وفاء لم يخونوا، ولم يغدروا، وأنهم يقابلون السيئة بالحسنى، ويتعاملون مع العدو كما يتعاملون مع الصديق، الحرب فى شرعهم وسيلة لا غاية، هدفهم نشر الحق، وإقامة العدل، ونشر راية السلام لذلك فهم يقابلون الجميل بالجميل وأكثر لأن القرآن الكريم يقول: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾[الرحمن: ٦٠]. لذلك قابل المسلمون موقف عمرو بكل حب وتقدير لموقفه النبيل، فعندما حوصرت حصون بنى قريظة وطوق الجيش الإسلامى بها ومع الدخول والخروج من الحصون، خرج «عمرو بن سعدى» ليلا من حصنه وهو مغاضب لقومه الذين لم يقبلوا ما عرضه عليهم، ألقى عليه القبض من الحزب النبوى الذى كان يقوم بأعمال الدورية وجاءوا به مقبوضا عليه إلى قائد الكتيبة «محمد بن مسلمة» و عندما عرفه القائد أمر بفك قيده وإطلاق سراحه وله أن يذهب حيث شاء لأن الحصار على اليهود بأهل الغدر والخيانة وعمرو لم يرتكب هذا، إن محمد بن مسلمة رفع وجهه إلى السماء بعد أن أطلق سراح عمرو وهو يقول: «اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام» ولما ذكرت هذه القصة لرسول الله ﷺ قال: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه» وقد نجا عمرو بن سعدى مما حلّ بقومه لأن الرجل وإن كان تمسك بيهوديته إلا أنه أصيل لم يشارك فى الأعمال الدنيئة الخسيسة التى ارتكبها اليهود.

الحصار

حاصر المسلمون اليهود واتخذ الرسول ﷺ مقر قيادته عند بئر من آبار اليهود يقال له «أنّى» واستمر الحصار لمدة عشرين يومًا وأصبح اليهود بعد هذه الأيام يساورهم القلق لأنهم أيقنوا أن المسلمين لن ينصرفوا عنهم حتى يستسلموا أو يقتحم المسلمون هذه الحصون يفتحوها بحد السيف، ولما أحس «كعب بن أسعد» أحد زعماء اليهود بهذا دعا إلى اجتماع عاجل لتبادل وجهات النظر، وكان هو كارها لنقض العهد فى أول الأمر لكنه استجاب، وقد تحدث كعب بن أسعد فى هذا الاجتماع الذى دعا إليه لإنقاذ الموقف إلى أن يستجيبوا لواحدة من ثلاث:

١ - الدخول فى الإسلام واتباع هذا النبى.

٢ - القيام بعمل انتحارى، وهو أن نقتل النساء والأطفال ثم نهجم على المسلمين فنبيدهم ويبيدوننا.

٣ - يوم السبت يوم عطلة عند اليهود، والمسلمون يعرفون ذلك فنقوم على حين غرة بالهجوم عليهم يوم السبت تدينًا.

لكن اليهود رفضوا العمل بأى من هذه الاقتراحات وقد يئس كعب ابن أسعد منهم كما يئس من قبله «عمرو بن سعدى»، و لما بلغ الحصار ذروته بعثوا إلى النبى ﷺ فى محاولة منهم لحقن دمائهم حيث يسمح لهم بالخروج مع نسائهم وذراريهم وأن يتركوا يثرب ولا يعودوا إليها، وقد ذهب بالعرض «نباش بن قيس» وبعد العرض على النبى ﷺ رفض هذا العرض رفضا باتا وأبلغ مندوبهم أنه لم يقبل

منهم أى شىء وعليهم أن يسلّموا أنفسهم دون قيد أو شرط ، فأعادوا العرض بواسطة مندوبهم أنهم على استعداد لترك كل ممتلكاتهم وأموالهم للمسلمين وأن يسمحوا لهم بالخروج لكن هذا العرض كذلك رفض .

لا أمل فى النجاة

كانت اليهود تقلب الأمر على كل الوجوه تحاول الاستعانة والاستغاثة بأى شىء ، فحاولت الاستعانة بقريش وبغطفان ، لكن هذه القبائل حانقة على اليهود حيث طلبوا منهم رهائن لذلك لم ولن يستجيبوا لهم ، فحاولوا بيهود بنى النضير «وهم أقوى قوة ضاربة» مسلحة فى الجزيرة العربية ولهم اليد الطولى فى تجميع جيوش الأحزاب وتموينها إلا أن يهود بنى النضير قد أصيبوا بالذعر وتملكهم الفزع بعد انسحاب جيوش الأحزاب دون أن يتحقق شىء من الهدف الذى خطط له ، ويهود بنى النضير قد خرجوا قبل ذلك من المدينة أذلاء لأنهم حاربوا المسلمين حربا خاسرة استسلموا فى نهايتها وليس عندهم قدرة على منازلة المسلمين بعد أن طردوا من المدينة ، بعد أن قلب يهود بنى قريظة فى هذه الأمور ووجدوا أنه لا حيلة لهم فى أى شىء إلا أن يستسلموا ، فقاموا بمحاولة أخيرة ظنوا أن فيها الخير لهم ، فقد أرسلوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أ ن يسمح لحليفهم أبى لبابة الأنصارى بأن يدخل إليهم ليستشيروه فى أمرهم ، ذلك لأن أبا لبابة كان حليفا لبنى قريظة وكانت أمواله وأولاده فى منطقتهم ، وسمح

النبى ﷺ القائد الأعلى لأبى لبابة بأن يذهب إلى مقابلتهم -كما طلبوا - ولما ذهب أبو لبابة إليهم استقبله النساء والصبيان يبكون فى وجهه، وظنوا أن ذلك يؤثر عليه، وفعلا رق قلب أبى لبابة وغلبته العاطفة وعندما اجتمع به الرجال وشرحوا له صعوبة موقفهم أشار بيده إشارة يفهم منها أن مصيرهم «الذبح» وعندما شعر أبو لبابة أنه ارتكب جرمًا عظيمًا وخطأ كبيرا فى حق الأمة استرجع وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وفاضت عيناه بالدموع ندما على ما فعل، ولما رآه سيد بنى قريظة «كعب بن أسعد» على تلك الحال من الخوف والاضطراب سأله - ما بك يا أبا لبابة؟ قال خنت الله ورسوله، قال أنت لم تتكلم قال: ولكنى أشرت بما فهمتم، وعاد أبو لبابة إلى معسكر المسلمين وكان ضميره يؤنبه وهو مهموم محزون، ولم يذهب إلى رسول الله ﷺ خجلا منه وتوجه إلى المسجد وربط نفسه فى عموده، لقد كان امتحانًا نفسيا قاسيا تعرض له هذا الصحابى الجليل الذى ربط نفسه بسلسلة ثقيلة بالأسطوانة التى تقع عند باب أم سلمة، ولما بلغ الرسول ﷺ ما فعل أبو لبابة قال النبى ﷺ: «أما إنه لو جاء لى لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، واستمر على ذلك أبو لبابة وكانت امرأته تأتيه وقت الصلاة فتفك رباطه ليقوم بتناول طعامه وقضاء حاجته ثم يعود فتربطه كما كان، واستمر على ذلك سبع عشرة ليلة حتى كاد يذهب سمعه وبصره.

بشــرى

كان النبى ﷺ فى بيت أم سلمة واستيقظ النبى ﷺ فى السحر ثم سمعته أم سلمة وهو يضحك فقالت له : م تضحك يارسول الله أضحك الله سنك؟ قال : «تيب على أبى لبابة» قالت قلت : ألا أبشره يارسول الله؟ قال . بلى . فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين فقالت ، يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، قالت فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده ، فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الجماعة أطلقه .

وكم كانت فرحة هذا الصحابى الجليل بقبول الله توبته ، لذلك أراد أن يتصدق بكل أمواله ، فقال له النبى ﷺ يجزيك الثلث أن تتصدق به .

إن القرآن الكريم أشار إلى خيانة أبى لبابة كما قال ابن عباس فى قوله الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال : ٢٧] .

أما الآية التى نزلت تعلن قبول توبته فهى قول الله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾التوبة : ١٠٢] .

لقد كانت استشارة أبى لبابة هى آخر محاولة يقوم بها يهود بنى قريظة بعد أن عرفوا منه أن الموت مصيرهم إن استسلموا للمسلمين ونزلوا على حكم النبى ﷺ بعد ذلك انقطع كل أمل عندهم وأصبحوا

فى حالة يأس وسيطرت عليهم روح الجبن وانهاروا انهياراً كليًا فكانوا يفكرون فى كل شىء إلا استعمال السلاح ، لهذا يقول اللواء الركن «محمود شيت خطاب» فى كتابه «الرسول القائد» : «لم تكن حرب بنى قريظة حرب ميدان وإنما كانت حرب أعصاب فلم يستطع اليهود أن يتحملوا الحصار على الرغم من توفر المواد الغذائية لديهم وتوفر المياه فى الآبار لقد قذف الله فى قلوبهم الرعب وهم على تلك الحالة من القوة والمنعة والتحصن ووفرة السلاح وكثرة العدد» .

المسلمون فى الخارج

عاش المسلمون يحاصرون حصون اليهود وهم فى حالة تعب شديد نتيجة الجهد المضنى الذى بذلوه فى حفر الخندق ولياليه المخيفة وأيامه ولياليه حرموا من النوم لشدة الخوف ودوا م الحراسة فى وجه عدوهم الجبار حيث لم تكن هناك فرصة يستريحون فيها ، ومع ذلك فالزاد لديهم قليل والبرد شديد ، وهم يرابطون حول حصون اليهود فى العراء فيتعرضون للبرد القارس لهذا كان المسلمون يفضلون أن يتم استسلام اليهود دون قتال ، ولما طالت المدة عن عشرين ليلة كان على القوات الإسلامية أن تتخذ قراراً سريعًا ، لذلك قرروا اقتحام الحصون المغلقة فصاح على بن أبى طالب حامل لواء الجيش وقال : «والله لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصونهم» وتبعه الزبير بن العوام وهو ابن عمته ، وسمعت اليهود وتتبعت الموقف فرأت أن كتائب الجيش الإسلامى تتحرك وأن الهجوم على حصونهم أمر لا بد منه فسارعوا بطلب إيقاف الهجوم وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول

ﷺ دون قيد أو شرط. طلب المسلمون من اليهود إلقاء السلاح وفتح الأبواب والخروج من الحصون، وتمت عملية الاستسلام وأمر النبى ﷺ أن يكون للرجال حبس خاص، أما النساء والأطفال فقد أمر النبى ﷺ أن يحفظوا فى مكان ليس فيه صفة الحبس وقد نزلوا فى دار الضيافة التى ينزل فيها الوفود التى تزور المدينة(١).

أرأيت إلى هذا العمل الكريم وسماحة الخلق إن ذلك لم يصدر إلا من نبى كريم يبلغ رسالة ربه ويحب الخير للناس أجمعين ويعمل على هدايتهم لأن الله أرسله رحمة للعالمين.

الشفاعة

أباح الإسلام أن يتوسط الإنسان عند شخص لقضاء مصلحة لشخص آخر. لكن الإسلام اشترط فى هذه الوساطة أنها لا تُضيِّع حقا لآخر، ولا يُعطى شىء لمن لا يستحقه، فالشفاعة إذًا تكون فى الشىء المقبول الذى لا يسلب حقًا من شخص يستحقه ويمنح لشخص لا يستحقه وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[النساء: ٨٥].

والشفاعة الحسنة هى الإحسان إلى الغير بالقول أو العمل وصاحب الشفاعة الحسنة له نصيب منها على قدر ما يبذل من نفسه للغير، أما صاحب الشفاعة السيئة فله كفل أى نصيب يعود إليه مما

---

(١) يراجع فى ذلك: سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٦، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١١٧، والبداية والنهاية ج٤ ص ١١٩، جوامع السيرة لابن حزم ص ١٩٣ وما بعدها.

عمل، لأن عائد الشفاعة الحسنة خير وبركة لأنه يوصل صوت مستحق ضعيف إلى من يملك الأمر دون اعتداء على آخر ويقدم شخصية تخدم فى المجال الاجتماعى بهمة وكفاءة خدمة للناس وإثراء للعمل الجيد والتفكير السليم والانضباط على موازين الحق والعدل والإحسان «ومُقيتًا» أى حفيظا ومقتدرًا وعليما بما تعملون، فلتكن الرقابة من أنفسكم على أنفسكم لأن الشفاعة لا تصح منكم ولا تجوز إذا كان فى ذلك تعطيل لحدود الله أو وضع من لا يستحق فى موضع يسلب ممن يستحق، ولهذا قال النبى ﷺ لأسامة بن زيد عندما ذهب يشفع عند رسول الله ﷺ فى المرأة المخزومية التى سرقت وهم الرسول ﷺ بقطع يدها، ونظرا لأنها غنية ومن أعيان القوم ووجهائهم توسط أهلها عند «أسامة» لأن الرسول ﷺ يحبه وما أن تكلم أسامة حتى ظهر الغضب على وجه رسول الله ﷺ وقال له: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها». هذا هو منطق الحق ومنطق العدل فالإنسان فى المجتمع يزكيه عمله وتقدمه كفاءته ولو كان صغير السن، فالإنسان بعمله وكفاءته وقدرته واستعداده الفطرى لأن يتولى العمل ويتقدم فيه بمهارته وكفاءته.

قدمنا ذلك لأن اليهود عندما استسلموا وخرجوا من حصونهم ذهبوا إلى الأوس، وهى قبيلة لها ثقلها تعادلها قبيلة الخزرج وهما اللتان انصهرتا مع بعضهما وتشكل منهما المجتمع الإسلامى ومن بعد الأخوة التى حققها رسول الله ﷺ بينهما أصبحا يعرفان بالأنصار، لكن كل قبيلة كانت تحتفظ بسماتها الخاصة وعاداتها الاجتماعية،

وكل قبيلة كان لها حلفاء، والحلف هو العهد الذى أخذ بين قبيلتين ليكون بينهما تعاون مشترك، وبعد الاندماج كانت كل قبيلة تحتفظ بهذا الحلف حتى وإن اختلفت فى الدين والعقيدة وقد أقرَّ الإسلام ذلك لأن تعاليمه توحى إلينا بأن نتعايش مع الناس فى سلم ومحبة مادام الوفاق والإحسان ومراعاة الشعور والحفاظ على الود القائم على كل ذلك يتم بتناغم وانسجام، إذًا فالمودة قائمة وقد أشار القرآن إلى ذلك بقول الحق سبحانه: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[الممتحنة: ٨].

من هنا فإن يهود بنى قريظة طلبوا من حلفائهم الأوس أن يشفعوا لهم عند رسول الله ﷺ، لذلك تشكل وفد من الأوس وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يتكرم بالتخفيف فى الحكم الذى سيصدره على هؤلاء اليهود، لأن الأوس بينهم وبين بنى قريظة حلف قديم وآثاره لا تزال قائمة، والذى شجع وفد الأوس على ذلك هو أن قبيلة الخزرج شفعت قبل ذلك فى يهود (بنى قينقاع) وقد قبل النبى ﷺ شفاعة الخزرج واكتفى فى معاقبتهم بإخراجهم من المدينة، لذلك قال وفد الأوس، يارسول الله: إنهم كانوا موالينا «أى حلفاؤنا» دون الخزرج وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت، فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا. بلى. قال رسول الله ﷺ: «فذاك سعد بن معاذ» وفرح الوفد بذلك لأن الكلمة أصبحت عندهم، لذلك طمعوا أن يصدر

عنهم عفوا ينجّيهم من القتل، وأسرع الوفد إلى سعد بن معاذ وأخبروه بما انتهى إليه الأمر وعليه أن يرأف فى الحكم بحلفاء قومه، ثم إن الرسول ﷺ لم يجعل إليه أمرهم إلا ليحسن فيهم.

وقد سبق الكلام عن سعد بأنه شخصية شعبية تتمتع بحب الجماهير وهو سيد الأوس وله أهله وعشيرته، لذلك لما جرح فى غزوة الخندق وجّه النبى ﷺ أمرا بأن يوضع له خيمة فى المسجد وأن تقوم على علاجه امرأة لها خبرة فى مداواة الجرحى هى من أسلم وتسمى «رُفيدة» وكان هدف رسول الله ﷺ من ذلك أن يطمئن على علاج سعد وأن يتمكن من زيارته ويتعرف على حاله متى شاء.

توجه وفد الأوس إلى سيدهم «سعد بن معاذ» وأخبروه بأن النبى ﷺ جعل أمر بنى قريظة إليه ليحكم فيهم بما يُريه الله وعليه إذًا أن ينتقل إلى حيث يعسكر الجيش الإسلامى فى ديار بنى قريظة ليبت فى موضوعهم، وكان جرح سعد الذى يعالج منه خطيرا وهو نفسه كان جسيما، ولما ألحوا عليه أعدوا له «دابة» ليركب وينتقل على هذه الدابة إلى مقر قيادة الرسول ﷺ واستجاب سعد وانتقل «على حمار» عليه إكاف من ليف ولما حُمل عليه حفّ به قومه وقالوا يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وقد ولاّك رسول الله ﷺ أمرهم لتحسن فيهم وكأن وجوه القوم تستعطفه، فلما ألحوا عليه وأكثروا قال لهم: «لقد آن لسعد ألاّ تأخذه فى الله لومة لائم» وأمام هذا التصريح من «سعد» علم قومه وتأكد لهم أنه ليس هناك تخفيضات من سعد يعطيها فى حكمه على اليهود بل تأكد لهم أن الإعدام هو مصير هؤلاء الناس.

وصول سعد إلى المعسكر

اقترب سعد بن معاذ من مقر قيادة النبى ﷺ فى بنى قريظة، وكان سعد عظيم الشأن عند النبى ﷺ ورفيع المقام فى قومه، ومحبوب بين المسلمين لأنه يتمتع بالذكاء والفطنة وبعد النظر ورحابة الصدر وسعة الأفق، وهو شهم شجاع سخى النفس كريم اليد، ولذلك لما اقترب سعد من مقر قيادة النبى ﷺ أمر النبى ﷺ الموجودين حوله أن يقوموا ويقفوا تحية لمقدمه فقال: «قوموا إلى سيدكم»، وعمر بن الخطاب الشخصية المتميزة عندما سمع النبى ﷺ يقول قوموا إلى سيدكم قال السيد هو الله، فأكد الرسول ذلك وكان غرض النبى ﷺ كما يظهر من جميع الروايات أنه هو من باب التكريم لهذه الشخصية المتميزة، ولذلك جاء فى رواية أخرى رواها البخارى «قوموا إلى سيدكم أو خيركم». المهم والذى يظهر لنا من مطالعة التاريخ أن هذا من باب التحية لهذه الشخصية المتميزة ثم ليساعدوه على إنزاله لأنه كان جريحا متعبا، لذلك وقف الجميع صفين يحييه كل رجل منهم حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ولما نزل واستراح قال له النبى ﷺ: «احكم فيهم ياسعد» فرد قائلا: «الله ورسوله أحق بالحكم»، فقال ﷺ: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم» بدأ سعد يسترجع شريط الماضى وذكرياته، وتمر الأحداث سريعة على خاطره إنه يرى هؤلاء الناس «اليهود» يوم نقضوا عهدهم ومالئوا الأحزاب على دولة التوحيد وذهب إليهم فشاتموا وتطاولوا عليه ولم يرعوا له حقا بل كانت بذاءتهم أبعد من ذلك فنالوا من رسول الله ﷺ بكلمات كلها فحش وبذاءة وتطاول،

حتى قال يومها «اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة» لأنه فى هذا اليوم ذكرهم بالحلف الذى بينهم لكنهم تحفزوا عليه وجرحوا كرامته وليس هذا الشيء يجعل سعدا يخرج عن حد العدل لأنه يلتزم بتعاليم الإسلام وقيم الدين وهو من الذين يحفظون قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء : ١٣٥]. لذلك فإن الحكم الذى سوف يصدره سعد هو حكم يتناسب مع جرمهم وخيانتهم، ومن المعلوم أن المحافل الدولية تضع قواعد وعقوبات محددة لمن يخون الدولة أيام الحرب، وإذا كانت الدولة قد توصلت إلى ذلك أفنستكثر على المسلمين أن يكون حكمهم صائبا وهم الذين عاشوا فى روضة الإسلام وتتلمذوا على يد أفضل نبى وخير من مشى على الأرض وعرفته الإنسانية بالعدل ومدحه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم : ٤]. لذلك وقف سعد يسأل هل ينزل الناس على حكمه قائلا: «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا نعم» وقد كان هذا الكلام من سعد موجها إلى بنى قريظة وإلى قبيلة «الأوس» ليستوثق أنهم لن يشغبوا عليه فلما استوثق منهم أراد أن يطبق العدل بأكمله، فما قاله للخصوم يقوله لأصحاب الحق، لذلك اتجه إلى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله «إجلالا وإكبارا واحتراما وتوقيرا» وأشار وقال وعلى من ها هنا، فقال النبى ﷺ «نعم» وبينما

الحديث يجرى هكذا فى المعسكر النبوى كان اليهود يرتجفون خوفا من المصير المرعب الذى يتوقعونه لأنهم مكروا مكرا سيئًا، وخانوا الأمة فى وقت رهيب وباعوا أنفسهم للشيطان ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، واليهود يدركون أن ما فعلوه يستحق الإعدام إلا أنهم يتشبثون بحلفائهم ليشفعوا لهم وقد فعلوا لكنهم يدركون تماما ما قالوه لسعد وقت الأزمة، لهذا كانت اللحظات تمر رهيبة وقد شُدَّت أبصار كل من فى المعسكر ناحية سعد خاصة الأوس قومه الذين بذلوا كل مساعيهم لتخفيف الحكم على حلفائهم، وأرهف اليهود آذانهم ليستمعوا إلى الكلمة النهائية التى تحدد مصيرهم وسمروا أبصارهم على سعد فى جزع وقلق، ووقفت نبضات قلوبهم الخبيثة التى امتلأت بالغدر والخيانة والحقد والكراهية على المسلمين.

والنبى العظيم محمد ﷺ الذى طالما تسامح وصفح حتى عندما دسّوا له السمّ فى الطعام وتطاولوا على شخصيته العظيمة وعلى نسائه الأطهار، لم يكن يدرى ما سوف ينطق به سعد، لذلك كان ينظر إليه سائلا الله سبحانه أن يلهمه التوفيق والسداد.

الحكم

سعد بن معاذ مفوض من الجميع وحكمه نافذ وقد رضى به الجميع حكما، وحكمه نهائى لا تعقيب عليه إذًا، وقف الكون بأسره يستمع إلى الحكم من فم سعد، وكان..

١ - إعدام جميع الرجال كل من بلغ الحلم من يهود بنى قريظة «ضربا بالسيف».

٢ - تسبى نساؤهم وذراريهم .

٣ - تصادر جميع ممتلكاتهم «المنقولة وغير المنقولة» على أن يكون ذلك غنيمة للمسلمين المحاربين الذين شاركوا فى حصار اليهود .

٤ - أن تكون ديار يهود بنى قريظة كلها للمهاجرين دون الأنصار ، وقد علل ذلك بقوله لأن المهاجرين ليس لهم فى المدينة بيوت .

ولقد عارض هذا الحكم بعض الأنصار لكنه رد عليهم بقوله : «إنى أحببت أن يستغنوا عنكم» .

صدر الحكم من سعد على اليهود بما يستحقون ، ولم يبد قومه «الأوس» أية معارضة ، لأنهم يدركون تماما أن الخائن لوطنه لا بد أن يعدم خاصة وقت الحرب ، أما اليهود فقد صعقوا لهذا الحكم الصارم وعلاهم الذهول وخيّم عليهم الوجوم ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن اليهود عارضوا أو احتجوا أو حاولوا مناقشة هذا الحكم ؛ لأنهم يدركون تماما الجرم الذى ارتكبوه والخطأ الذى وقعوا فيه ، لذلك فلم يعترضوا ، أما النبى العظيم محمد الذى امتلأ قلبه بالرحمة على النية والعطف على الجميع قال بعدما استمع لحكم سعد : «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات» .

شريط الذكريات

بعد هذا الحكم مر شريط الذكريات أمام عينى سعد عندما بعثه رسول الله ﷺ على رأس وفد إلى بنى قريظة لجس نبضهم وتذكيرهم بالعهد الذى بين المسلمين وبينهم وعليهم أن يكونوا أوفياء فى هذه

اللحظة الحرجة وعليهم أن يقوموا بالتزاماتهم العسكرية للدفاع عن الوطن بجانب المسلمين، لكنهم «ودون أى خجل أو حياء» نقضوا العهد وأصروا على مشاركة الأحزاب فى استئصال شأفة المسلمين.
فتجسد هذا الموقف أمام سعد وتذكر أنه فى أحرج اللحظات، وجّه هؤلاء اليهود إلى حلفائهم المسلمين طعنة جارحة فى أدق الظروف التى مرت بجيش محمد فى تاريخه منذ نشأته، ثم وقف سعد عند موقف أنه هو والوفد «استعطفوا اليهود» وطلبوا منهم البقاء على العهد وألا يغدروا بالمسلمين فى هذه اللحظة، وكم قدّم الوفد يومها لليهود من نصائح حتى قال أحدهم لسعد يومها وهو يسبُّه سبًا مقذعًا «أكلت أير أبيك» وهى كلمة لا تصدر إلا من سفيه يتعالى ويتطاول لذلك فإن سعدا يومها قال والدموع فى عينيه «اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة»، ولقد كان جرح سعد خطيراً لكن الله أبقى عليه استجابة لدعوته وحكم على هؤلاء بالإبادة ليطهر الأرض منهم لأنهم «جرثومة وباء».

تنفيذ الحكم

صدر الحكم فى ديار بنى قريظة، وبعد أن استقرت الأمور، تحرك النبى ﷺ بجيشه إلى المدينة دخلها فى اليوم السابع من ذى الحجة سنة خمس للهجرة وقد أحاط باليهود قوة حرس بقيادة «محمد بن مسلمة وعبدالله بن سلام» ولما استقر الأمر برسول الله ﷺ بالمدينة أمر بحفر خنادق عميقة لتدفن فيها جثث هؤلاء الخونة بعد إعدامهم وكان عددهم ما بين «الثمانمائة إلى التسعمائة» ولقد أعدم هؤلاء اليهود فى

ليلة واحدة والذى تولى عملية الإشراف هو «على بن أبى طالب والزبير بن العوام» وقد أضيئت مشاعل من سعف النخيل واشترك الأوس فى عملية الإعدام لأنهم يدركون تماما أن الجزاء من جنس العمل وقد أرادوا بهذا الاشتراك الإعلان عن موافقتهم على الحكم لأنه يناسب جرمهم وحتى لا يظن أحد من الخزرج أنهم كانوا يشفعون لليهود ثم هم لا يقبلون الحكم عليهم بالقتل خاصة وأن الذي أصدر الحكم هو من الأوس.

النبى ﷺ يشهد

خرج النبى ﷺ إلى سوق المدينة التى حفرت فيها الخنادق وشاهد عملية الإعدام وعندما تقدم حيى بن أخطب الذى قاده عمله الخبيث إلى مصرعه لم يخف بغضه للنبى الأعظم وحقده عليه، فعندما أتى به لم يظهر عليه أثر الخوف وأنه على جانب كبير من الشجاعة والثبات وكان يلبس حلّة «فقاحيَّة» أى لونها يضرب إلى الحمرة على لون الورد حين يتفتح، وقد شقها من كل ناحية حتى لا يلبسها أحد من بعده، واتجه هذا الرجل بكل ما فيه من وقاحة، وتكلم بكلام ينبئ عن الحقد الذى فى قلبه، فنظر إلى الرسول وقال: «أما والله ما لُمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذله» ثم قال: «أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبه الله على بنى إسرائيل» هذا الإنسان الحاقد لم يشر إلى أن الجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد، لكن عمى البصيرة وعدم الاستجابة لم يرشد إليه العقل السليم الذى لا يرضى بالخيانة ولا يقر الغدر.

وحيى بن أخطب هو من بنى النضير وكان قد دخل مع يهود بنى قريظة فى حصنهم ليقوى عزيمتهم ويشد من أزرهم ويجعلهم لا يستسلمون لمحمد ولا لحكمه، وحُيى هذا هو من الذين شاركوا فى الوفد الذى تحرك على الساحة العربية وحزَّب الأحزاب وجمَّع الجموع، لذلك لقى مصيره، أما الشخصية الأخرى فى سيد بنى قريظة «كعب بن أسعد» كان على جانب كبير من العقل وبعد النظر، كان يميل إلى الإسلام لكن صديقه حيى بن أخطب انحرف عن الخط المستقيم فغلبت عليه شقوته وسار فى طريق الغدر بالمسلمين والخيانة لهم، وكان يتميز بعفة اللسان ووفرة الأدب، فلمّا جيء به ليقتل قال له النبى ﷺ: يا كعب قال نعم يا أبا القاسم قال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقًا بى أما أمركم باتباعى وإن رأيتمونى تقرؤونى السلام؟» قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرنى اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك» هكذا دار الحديث.

وابن خراش هذا حبر من أحبار اليهود الكبار مات قبل ظهور النبى ﷺ وكانت وصيته لأتباعه أن يتبعوا النبى العربى ويقرأوا عليه السلام من خراش.

إن كعب بن أسعد كما يصدر المؤرخون قال لحيى بن أخطب عندما طلب منه الغدر بالمسلمين «ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم وقد صدقت فراسة كعب لأن حيى بن أخطب كان أشأم إنسان على بنى قريظة، ولم ينج من القتل إلا رجل واحد واسمه «رفاعة بن سموءل القرظى» شفعت له عند رسول الله ﷺ امرأة فقبل شفاعتها وهى «سلمى بنت قيس» من السابقات إلى الإسلام وبايعت بيعة النساء

وصلّت إلى القبلتين، وهذا الرجل لاذ بها ووعدها بدخوله فى الإسلام وقد أسلم فعلا، وهذه القصة تبين لنا أن الرسول ﷺ يحب العفو لأنه خلق من أخلاقه.

قصة عجيبة

من القصص العجيبة التى حدثت يرويها لنا ابن هشام بأنه كان ثابت بن قيس بن الشماس قد أتى الزبير بن باطا القرظى، وكان الزبير قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية، فجاء الزبير وكان من بنى قريظة إلى قيس هذا وقال له هل تعرفنى؟ قال قيس. وهل يجهل مثلى مثلك قال: إنى قد أردت أن أجزيك بيدك عندى قال: إن الكريم يجزى الكريم، قال ابن إسحاق: ثم أتى قيس بن ثابت رسول الله ﷺ وقال له: يارسول الله «إنه قد كانت للزبير بن باطا علىّ منّة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه، فقال رسول الله ﷺ هو لك، فقال الزبير بن باطا لمّا أبلغه قيس أمر العفو عنه «شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟» فرجع ثابت إلى النبى ﷺ فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله هب لى امرأته وولده، فقال النبى ﷺ: هم لك، فرجع ثابت إلى الزبير وقال له: قد وهب لى رسول الله ﷺ أهلك وولدك، قال الزبير أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ وقال يارسول الله، ماله - أى هب لى ماله». فقال ﷺ: هو لك فأتاه ثابت فقال للزبير، قد أعطانى رسول الله ﷺ مالك، لكن الزبير بن باطا اليهودى أخذ يسأل عن بعض شخصيات قيادية وشعبية من اليهود فكلما سأل عن واحد

قالوا قتل، قال الزبير يا ثابت بيدى عندك إلاّ ألحقتنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله قتله دلوة ناضح حتى ألقى الأحبة، أى أن الرجل لا يصبر بمقدار ما يأخذ الرجل من الدلو حتى يقتل ليلحق بأحبته، لذلك لما بلغ أبو بكر الصديق مقالته قال: يلقاهم فى نار جهنم خالداً مخلداً»، وهذه القصة ترينا مبلغ ما وصل إليه الرسول ﷺ من تسامح وكرم وحب لأصحابه، ثم تكشف لنا عن نفوس اليهود الخبيثة التى تعرف الحق ولا تؤمن به.

امرأة وحيدة هى التى أعدمت

إن الحرب فى الإسلام وسيلة ولها آداب فهى تحرم تحريمًا قاطعًا قتل نساء العدو إلا حدا أو قصاصا أو فى الميدان إذا كانت المرأة تقاتل مع الجند، لكن هناك امرأة وحيدة من نساء بنى قريظة أمر النبى ﷺ بقتلها واسمها «مزنة» هذه المرأة ساعة تنفيذ حكم الإعدام فى رجال بنى قريظة كانت موجودة فى بيت السيدة عائشة رضى الله عنها وعندما ذهب أحد الجند من المسلمين ينادى عليها باسمها من بين نساء بنى قريظة وقالت أنا، قالت لها السيدة عائشة ويلك ما لك؟ قالت أُقْتَلُ، قتلنى زوجى. فقالت لها عائشة رضى الله عنها وكيف قتلك زوجك؟ قالت إنى كنت زوجة رجل من بنى قريظة وكان بينى وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان فلما اشتد أمر المحاصرة قلت لزوجى: يا حسرتى على أيام الوصال، كادت أن تنقضى وتتبدل بليالى الفراق، فما أصنع بالحياة بعدك؟ فقال زوجى إن كنت صادقة فى دعوى المحبة فإن جماعة من المسلمين جالسون فى ظل حصن فألقى عليهم حجر

الرحى لعلّه يصيب واحداً منهم فإن ظفروا بنا يقتلوك بذلك ففعلت» وهذا يدل على أن الرجل حرّض زوجته وكان يعرف أن الجريمة التى ارتكبها قومه وهو تستحق الإعدام فطلب من زوجته أن تفعل ذلك لتقتل معه .

ثم انطلقت إلى مكان الإعدام فضرب عنقها وقتلت جزاء وفاقا لفعلتها النكراء ولأنها قتلت مسلمًا، والقصاص حق واجب، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : «والله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل» يقول أحد الصحابة اسم زوج هذه المرأة «الحسن القرظى» .

هذه نماذج أردنا أن يقف القارئ معنا على هذا الموقف الذى أقرته الدول الحديثة والمجتمعات الدولية والعرف العالمى فى قتل الخائن لوطنه وقت الحرب والذى يغدر بأمته ويتجسس لصالح الأعداء كذلك .

موقف إنسانى نبيل

النبى محمد ﷺ صاحب الخلق الرفيع ومحامد الصفات وكريم العادات، الأصيل الذى تبوأ مكان القيادة الأخلاقية في دنيا الناس لأنه طبق القرآن على نفسه وسار على نهجه والتزم بما فيه، فكان قرآنا يمشى على الأرض يشع بالخير بين الناس جميعًا . . لهذا .

كانت هناك فتاة تسمى «صفية» ابنة اليهودى الذى اتسم بالحقد والعداوة لرسول الله ﷺ «حيى بن أخطب» وكانت متزوجة بابن أبى

الحقيق «كنانة بن الربيع» وقد قتل يوم خيبر، هذه المرأة أبوها من زعماء القوم وزوجها شاعر فحل، وكانت السيدة صفية قد وقعت أسيرة وكانت من نصيب الصحابى الجليل «دحية» لكن رجلا من الصحابة قال لنبى الله ﷺ إن صفية بنت حيى سيدة بنى قريظة والنضير ما تصلح إلا لك لأنها كانت بنت أمير القوم ومن أعقلهم وأصيبت فى أعز أهلها ونحن قوم شعارنا «أكرموا عزيز قوم ذل» فأرسل النبى ﷺ إلى دحية وقال له اترك صفية وخذ جارية غيرها فاستجاب الصحابى، وقد أعتق الرسول ﷺ صفية وتزوجها وأصبحت من أمهات المؤمنين، وقد أسلمت وحسن إسلامها وروت الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ، كانت صوامة قوامة تكثر من التهجد والتنفل والصيام وتجلس على مائدة القرآن تغذى روحها وتصل نفسها بربها. وصفية هذه تبين لنا أن الشر قد يخرج منه الخير كما أن الخير أحيانا يعود بالشر، ولقد كانت سيدتنا صفية رضى الله عنها من خيرة أمهات المؤمنين ومن أرجحهن عقلا، وعندما تزوجها الرسول ﷺ وقف أبو أيوب خالد بن زيد على باب الحجرة متوشحًا بسيفه يطوف بجدران البيت، على غير علم من الرسول ﷺ فلما أصبح الصباح ووجده مازال يقظا سأله ما لك يا أبا أيوب؟ فقال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة لأن أباها قتل وزوجها كذلك وكثير من رجال قومها وهى حديثة عهد بكفر فخفت عليك منها، فدعا له الرسول ﷺ وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى».

توزيع الغنائم

شكلت لجنة كبيرة من الصحابة رضوان الله عليهم للقيام بجرد وإحصاء جميع أموال بنى قريظة من ديار وسلاح وأثاث ومزارع وخيول وجمال «المنقول وغير المنقول» وقد وجدت اللجنة أن كثيراً من الخمر معبأ فى جرار مخزون، فأمر النبى ﷺ بعدم حصرها وإراقتها على الفور. وبعد أن تم حصر الغنائم من سبى وأموال أمر النبى ﷺ بتوزيعها حسب القانون الإلهى وهو قول الحق سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فالغنائم قسمت على خمس أقسام، قسم يبقى تحت تصرف النبى ﷺ يتصرف فيه حسبما تقتضيه المصلحة العامة وأربعة أقسام توزع أسهما على المحاربين الذين بسيوفهم جاءت هذه الغنائم، وقد وزعت كالآتى: -

١ - الفارس الذى معه فرسه له ثلاثة أسهم.

٢ - الفارس الذى ليس له فرس له سهم واحد.

وسبب هذا التقسيم أنه عُرفٌ متداول أولا، ثم إن أثر الفارس في المعركة، الذى معه فرسه، أشد بكثير على العدو من الذى ليس معه فرس، وقد أسهم الرسول ﷺ لرجلين من المسلمين كانا قد ماتا أثناء الحصار هما «خلاد بن سويد» وهو الذى قتلته «مزنة» بحجر الرحى الذى ألقته عليه من الحصن، والثانى «أبو سنان بن محصن» مات أيام الحصار لأنه كان ضمن الجيش، وقد تسلم الورثة ما لهؤلاء من حقوق.

معاملة إنسانية

عند توزيع الغنائم على المحاربين أصدر النبى ﷺ أمرًا عاما بأنه :

١ - لا يفرق بين أم وولدها .

٢ - لا يفرق بين أخ وأخيه ماداما صغيرين .

٣ - سار هذا المبدأ من المبادئ الهامة التى يتمسك بها المسلمون إلى أن تقوم الساعة .

لما رواه الترمذى فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» وعن عبادة بن الصامت قال . قال النبى ﷺ : «لا يفرق بين الوالدة وولدها فقيل إلى متى؟ (قال حتى يبلغ الغلام وتحيض الجارية) ونتيجة لهذه الأوامر النبوية كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى قادة الجيوش الإسلامية فى الشام والعراق وغير ذلك يقول : «لا تفرقوا بين الأخوين ولا بين الأم وولدها فى البيع لأنه ذو رحم» وقد حكم الإمام الشافعى بفساد بيع المفرق بينهما سواء كان المفرق بينهما بالبيع أخوين أو أم وولدها .

هذه هى الشفقة فى أحلى مقاماتها الإنسانية والرحمة بكل ما اشتملت عليه من حنان وعطف ورعاية .

روى الترمذى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : «وهب لى رسول الله ﷺ غلامين صغيرين فبعت أحدهما ، فقال ما فعل غلامك فقلت بعته فقال ﷺ (رده رده) فكأن النبى ﷺ استنكر التفريق بين الأخ وأخيه ما داما صغيرين» .

جزاء عادل

إن الحكم الذى نزل ببنى قريظة صدر لأنهم من الناحية القانونية خونة فلقد أثبتت مجريات الأحداث منذ وصول النبى ﷺ إلى منطقة يثرب أن اليهود عاشوا وهم يعملون بكل طاقاتهم لاستئصال الإسلام والقضاء عليه والكيد للنبى ﷺ ونشر الإشاعات ضده، وبات مقررا أن الغدر والخيانة واستحلال دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم طبيعة متأصلة فى نفوس اليهود الخبيثة وسابحة فى دمائهم، و كانت هذه الصفات تظهر وتبرز فى سلوكهم عندما تسنح لهم الفرصة، فما نزل بهم عدل يتفق مع نصوص القوانين الحديثة.

المعاهدة

عندما استقر الأمر بالمسلمين فى المدينة قام النبى ﷺ باعتباره «الحاكم العام بيثرب» بعقد معاهدة مع اليهود وقد قبل اليهود بنود هذه المعاهدة وتسمي «الصحيفة» ووقعوا على هذه المعاهدة والتزموا العمل بها وبنصوص بنودها طائعين مختارين دون أن يكرههم أحد.

وفى هذه الفترة كانت الدولة الإسلامية وليدة ليس لها قوة عسكرية شهيرة، وقد كان اليهود عند توقيع المعاهدة فى مركز عسكري ممتاز، لأنهم أهل البلد وأدرى وأعرف باستراتيجيتها وعندهم السلاح والمال والرجال ومع ذلك ارتضوا هذه المعاهدة، وبهذه المعاهدة أصبح سكان يثرب (المسلمون/ اليهود) فى العرف الحديث يشكلون وحدة وطنية من حيث كونهم سكان بلد واحد، من

هنا وقع زعماء المسلمين واليهود بأنهما يلتزمان بالدفاع عن الوطن المشترك سواء كان المقصود بهذا الاعتداء المسلمين أو اليهود، والبند الذى ينص على الدفاع المشترك فى هذه المعاهدة «وأن بينهم (أى المسلمين واليهود) النصر على مَنْ دهم يثرب» وجاء فى بند آخر «وأن على المسلمين نفقتهم وأن على اليهود نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة (أى المعاهدة) وأن بينهم النصح والبر دون الإثم».

ولما كانت قريش هى العدو اللدود للمسلمين فقد جاء فى بنود المعاهدة «وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها» إذًا اليهود قد اعترفوا فى هذه المعاهدة بالحكم الإسلامى القائم فى يثرب، وإن لم يعترفوا بالإسلام رسميًا، وأن محمدًا عبد الله ونبيه هو الحاكم العام والرئيس الأعلى لهذه الدولة واليهود من سكانها، فهم مواطنون يجرى عليهم فى ظل الحكم ما يجرى على غيرهم ما عدا الأمور المتعلقة بطقوسهم الدينية وأحوالهم الشخصية وما يتعلق بالزواج والطلاق والإرث لكنهم يلتزمون بقانون البلد العام ويعترفون اعترافا كاملا بأن الحاكم العام هو محمد بن عبدالله رسول الله ونبيه، ولم يكن اليهود مجبرين عند توقيع المعاهدة، ومع ذلك فقد ارتكب يهود بنى قريظة ثلاث جرائم تكفى كل واحدة منها لإدانتهم «طبقا لمنطق القانون الدولى - أو لقانون أى بلد» هذه الإدانة هى «الخيانة العظمى» والحكم الذى نراه فى كل بلد هو الموت، والجرائم التى ارتكبوها هى:

١ - اتصالهم بالعدو، ونقلهم إليه أسرارًا عسكرية تعرض سلامة الجيش والوطن لأشد الأخطار «التجسس لصالح العدو».

٢ - مد العدو بكل ما أمكنهم من عون مادى وتأييد أدبى ييسر للعدو مهمة احتلال الوطن والقضاء على سكانه.

٣ - رفع السلاح ضد جيش الوطن وأخذ العُدة والتأهب لضرب الجيش من الخلف ونشر الفزع بين النساء والأطفال.

هذه هى الجرائم ونحتكم الآن إلى القانون الدولى ونقول له، ما حكم المواطن الذى ينقل معلومات وطنه إلى العدو فى ظروف حربية دقيقة قاصداً من وراء غدره وخيانته إخضاع وطنه للغزاة، وإسقاط النظام القائم بالتواطؤ مع العدو وبحد السلاح؟ ثم ما هو الحكم فى المواطن الذى يستغل ظروف وطنه ومواطنيه الذى هو جزء منهم ويعيش على أرض الوطن وبين أفراده فيخون وطنه ويغدر بأمته ويطعنها من الخلف؟ هذه أسئلة نرجو الإجابة عليها حتى لا يظن أحد بأن الإسلام استعمل القسوة مع اليهود، لأن هذه الأعمال كلها تصنف فى باب «الخيانة العظمى» وإذا كان اليهود جمعوا فى تصرفاتهم الخائنة الغادرة كل الجرائم فهم لم يكتفوا بهذا بل شهروا السلاح فى وجه الجيش الإسلامى المشغول بمواجهة الغزاة وأعلنوا قطع كل صلة بحلفائهم ومواطنيهم وانضموا فى تلك الساعات المزلزلة الرهيبة إلى قوات العدو مستغلين الموقف الدقيق الذى بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والشدة حدّ الاختناق، ومن المؤكد لو انتصر الأحزاب على المسلمين لفعلوا بالمسلمين أكثر من ذلك، لأن النيّة مبيتة حسبما ظهر من الاتفاق بين اليهود والأحزاب على استئصال شأفة المسلمين ومصادرة كل أملاكهم وسبى جميع نسائهم وذراريهم، وقد تجلى هذا الشرط عندما طلب اليهود من الأحزاب ألا

ينسحبوا عن المدينة ولا يفكوا الحصار عنها إلا بعد أن يتم لهم ذلك ، لهذا عامل النبى ﷺ اليهود على أنهم خونة وليسوا أسرى حرب لأن الإسلام يحترم الأسير ولم يحدث أن المسلمين قتلوا أسرى فى يوم من الأيام وهناك ثلاثة فقط من الأسرى أمر النبى ﷺ بقتلهم لما حدث منهم من أعمال فى عداد «مجرمى حرب» بل كبار المجرمين والثلاثة هم : -

١ - عقبة بن أبى معيط ، وهو من تاريخه معروف مشهور .

٢ - النضر بن الحارث العبدرى وتاريخه كذلك أيضًا معروف .

٣ - أبو عزة ، عمرو بن عبدالله الجمحى ، أسره المسلمون فى غزوة بدر وأطلق النبى ﷺ سراحه بعد أن عاهد النبى ألا يحمل السلاح ضد المسلمين ، لكنه غدر وحمله فى غزوة أحد وأسر فأمر النبى ﷺ بقتله لأنه غادرخائن .

هؤلاء هم الثلاثة الذين كانوا أسرى وأعدموا لكن الإسلام يعامل الأسير بالرفق واللين والعمل على تأمين دمه ونقل رسائله إلى أهله وعلاجه إلى أن يتم تبادل الأسرى أو الإفراج العام ، هذه الحقائق نذكرها حتى لا يتورط أحد فى أن يتهم الإسلام ومعتنقيه بأنهم يعملون على الإبادة الجماعية لأعدائهم أو أنهم يحبون سفك الدماء فذكرنا ذلك لنكون على بينة من الأمر ، ونقف عند حكم العقل وما ارتضاه المجتمع الدولى الآن .

شريعة اليهود

سيدنا سعد بن معاذ القاضى الذى حكم فى قضية اليهود وقد قلنا عن شخصيته بأنها عظيمة كان يتعايش مع اليهود قبل الإسلام لأنهم

حلفاء قبيلته، فهو يعرف عنهم الكثير حيث كان يجلس مع أحبارهم ويتناقشون فى الآراء العامة، ولعّل مثل هذه القضية عرضت فى مجال البحث والمناقشة واستنبط سعد بن معاذ الحكم من اليهود وفق شريعتهم، لأن سعدا كا ن مريضًا ولم يذهب مع الرسول ﷺ إلى حصار بنى قريظة ولم يجالسه الرسول ﷺ مدة تزيد على الشهر وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة أن يقفوا له تحية تقدير واحترام، هذا الرجل جاء حكمه موفقا تماما «للشريعة الموسوية» فقد جاء فى التوراة عندهم الإصحاح العشرون سفر التثنية- ٢٠، ١٣، ١٤ والنص «وإن لم تسالمك أية قرية بل حاربتك فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك» هذا النص الصريح فى كتاب اليهود المقدس، فكانت العقوبة التى أنزلها المسلمون بهم هى نفس العقوبة التى كان اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو تغير ميزان الواقع فالحكم إذًا جاء وفقا لشريعتهم.

رأى منصف

الإنسان العادل لا يميل مع الهوى ولا يحابى غيره، لأن الحق أحق أن يتبع، والمعروف عن الغرب أن كُتَّابه يغمضون عيونهم عن عيوب اليهود ويضخمون كل صغيرة تقع من المسلمين، وهذا بلا شك ظلم وعدم إنصاف لكنك دائما تجد فى وسط الظلام بريق ضوء لشخص ينصف الحقيقة من هؤلاء الناس، ونقف أمام شخصية قالت كلمة

الحق لأنه تجرد عن الهوى واتسم بالنزاهة فأنصف الحقيقة إنه الكاتب الإنجليزى الدكتور «مونتجمرى وات» حيث ذكر فى كتابه[1] «محمد نبى ورجل دولة» ، يقول هذا الرجل «ولا داعى للافتراض بأن محمدا قد ضغط على سعد بن معاذ لينزل هذه العقوبة ببنى قريظة فإن رجلا بعيد النظر كسعد لابد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلى على الولاء الإسلامى سيجدد المعارك الدموية التى جاءوا (أى الأوس والخزرج) بمحمد لينقذهم منها ، ويقال إنه عندما مثل «سعد» أمام محمد لينفذ حكمه أشار سعد إلى قرب نهايته تحتم عليه أولا القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية حتى على حساب الأحلاف القديمة ، ثم يقول : وإن تعيين سعد بن معاذ من قبل محمد لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة دكتاتورية لم يكن محمد يملكها فى ذلك الوقت بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنة .

ثم يؤكد الدكتور مونتجمرى بأن الحكم النافذ فى بنى قريظة لم ينفذ لأنهم يهود بل لأنهم خونة ارتكبوا الخيانة العظمى ، ثم يقول : إن استمرار وجود بعض اليهود فى المدينة يمكن أن يعتبر دليلا ضد وجهة نظر بعض العلماء الأوربيين التى تقول ، إن محمدا انتهج فى السنة الثانية من الهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة لمجرد كونهم يهود وأن هذه السياسة أخذت تزداد عنفا فيرد الدكتور مونتجمرى على هذا الاتهام بقوله «محمد لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة ولسياسة طويلة الأمد يكون على ضوئها سياسته بموجب العوامل ، أما بالنسبة لهجومه

(١) ص ١٧١ وما بعدها.

على القبيلتين اليهوديتين «بنو النضير وبنو قريظة» فقد كان مجرد فرصة مواتية غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة، فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامى بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحى القرآنى، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسى لأعداء محمد ومناوئيه من المنافقين، وقد سمح لهم محمد (مع هذا) بالعيش فى المدينة دون أن يمسّهم منه أى أذى» ا. هـ[1].

هذا هو رأى رجل منصف من الغرب لا يدين بالإسلام ومع ذلك كان النبى ﷺ يعاملهم بالحلم والرفق، لأن هذا هو أساس دينه فهو المبعوث رحمة للعالمين والذى قال الله له ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد كان المد الإسلامى داخل المجتمع اليثربى أقوى من كل ما يقوم به اليهود من مناورات ودسائس، لقد تكشف للرأى العام حقيقة أمرهم وصبر الإسلام عليهم وأنهم كانوا دائمًا يثيرون الجدل المتعنت مع المسلمين حول ما جاء من نصوص تشريعية فى القرآن الكريم ولما باء سعيهم بالفشل فى هذا الميدان ساءهم جدا أن تكون حصيلة صراعهم العقائدى مع دعوة الإسلام تلك الهزيمة المحطمة لآمالهم لجأوا إلى الإشاعات باعتبارها حربًا نفسية عنيفة، حتى أنهم فى غزوة بدر أشاعوا بأن النبى ﷺ قد قتل وأن جيش مكة زاحف بقيادة أبى جهل لاحتلال المدينة، وكانت هناك حملات دعائية واسعة من

---

(١) هذا الكتاب ترجمه الأستاذ أحمد سالم بالعمش.

الأراجيف والتشويش لتحطيم معنويات المسلمين وإشاعة روح التخاذل والتفكك والفزع بينهم، وقد كانت هذه الأراجيف لها الفعل السيىء فى نفوس بعض المسلمين حيث كان المنافقون يؤازروهم.

إذًا هناك حقد أعمى وحرص على تقويض معالم الدعوة الإسلامية والقضاء على حامل لوائها، ومع كل هذا فقد كان النبى ﷺ وهو الحاكم العام لم يقم بفرض حظر التجول على اليهود ولم يسن قوانين (بأحكام عرفية) وكان هذا حقه الطبيعى ولم يثبت أنه اتخذ ضدهم أى إجراء تأديبى مع علمه بما يقومون به من حرب نفسية وعدائية سلاحهم الإشاعات ونشرها بين الناس، ومع ذلك فقد كان النبى ﷺ وهو الحاكم العام السيد المطلق لمنطقة يثرب وما حولها يتعامل معهم بلطف ولم يحدث فى أى يوم من الأيام أن تحرش بهم أو رد عليهم بمثل أعمالهم لأن أساس دينه يقول له: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩]. والدين الإسلامى تقوم دعوته على السماحة وعدم إكراه أحد فى الدخول فيه والدليل من قول الله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. بل هناك توجيه إلهى كذلك أن المسلم عليه أن يستقبل الكافر بسماحة ورفق وأن يفسح له فى بيته ويضفى عليه الأمن والأمان لا يروعه ولا يزعجه وإنما حسن الخلق والتسامح والرفق يقول ربنا فى هذا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[التوبة: ٦]. إذا نقف أمام الذى حدث لليهود بعد حصارهم، ونقول ما علمنا ربنا فى قوله: ﴿ إِنَّمَا

كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١]، وقوله كذلك ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[الأحزاب : ٣٦]. ومن هنا فإننا نقول لكل مسلم وهو يناقش الحكم الصادر فى حق يهود بنى قريظة إنه حكم عادل للأسباب الآتية :

١ - لأن القاضى سعد بن معاذ من حلفاء اليهود.

٢ - لأنه يتفق مع منطوق شريعتهم وهو الأهم.

٣ - لأن النبى محمدا ﷺ لا يرضى بظلم ولا يقره ولا يصدر أى حكم منه فى مجلسه إلا بما يرضى الله لأنه مبلغ وحيه : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم : ٢ ، ٣].

لذلك كان تعقيبه على حكم سعد «حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات».

فى القرن العشرين

إن عملية إبادة حوالى ثمانمائة مقاتل من يهود بنى قريظة مراعاة لصالح الأمة وسلامة الدولة نقارن هذا بما قامت به أمريكا فى القرن العشرين برمى القنابل الذرية على سكان هيروشيما التى كان سكانها يزيد عددهم على «مائتين وخمسين ألفًا» مسالمين ليسوا بمحاربين ولا خونة ولا ناكثين للعهد ولا غادرين بأحد وإنما هم من الآمنين الوادعين الذين لم يحملوا السلاح، وكان فيهم النساء والأطفال والشيوخ.

وقامت طائرة بعد تخطيط سابق وقصد ودمرت هذا العدد دون حساب . كما ألقى مثل هذه القنبلة على سكان مدينة نجازاكى العزَّل فأبادوا مئات الآلاف ومن نجا من المدينتين عاش مشوَّها بفعل أثر القنابل الذرية .

لقد حصدت مئات الأرواح من الأطفال والآلاف من النساء والآلاف من الشيوخ والآلاف من الرجال العزَّل اليابانيين الذين لم يقترفوا ذنبا ولم يرتكبوا أى خطأ .

فعدالة القرن العشرين ومع ميثاق هيئة الأمم المتحدة التى أعلنت حقوق الإنسان تمت هذه الإبادة التى أقدم عليها الذين يبكون على الثمانمائة من اليهود الخونة الذين مات ضميرهم وباعوا وطنهم ألا يخجل هؤلاء؟! الذين حصدوا مئات الآلاف من أرواح الأبرياء بالقنبلة الذرية ، ألا يخجل هؤلاء الذين لوثوا تاريخ البشر وهم يتشدقون ويقولون نحن فى ذروة المدنية ، أى مدنية هذه التى يتحدثون عنها؟ أهى التى أباحت بقانون لطياريهم فى الحرب العالمية الثانية أن يقتلوا تحت الأنقاض فى ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العزَّل؟ وقد حدث هذا فى مدينة هامبورج الشهيرة عندما شنّت طائرات الحلفاء غاراتها الوحشية وارتكبوا هذا الجرم الفظيع ، أهذه هى المدنية التى يجعلها ضعاف العقول مقياسا أعلى للإنسانية والرحمة والعدل؟ أين هذا العدل الذى يتحدثون عنه فى ظل قوانينهم؟ كانت التفرقة العنصرية التى مازالت تسيطر على روح الكثير ممن يعتنقون مبدأ هذه الدول .

يا قوم آن لكم أنْ تفكروا وأن تعلموا أن ما يجرى فى ساحة المسجد

الأقصى وحوله إنما يعود إلى ما قدمناه أن اليهود لا يحبون إلا أنفسهم وقد قالوا كما حكى القرآن عنهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٥].

إن اليهود لن يستطيعوا أن يتعايشوا بسلم وسلام مع المجتمع الإنسانى إلا إذا قلّمت أظافرهم وانحصر مدّهم وتعامل المجتمع معهم بالقوة لأنهم أحرص الناس على حياة ويحاولون سفك دماء غيرهم ويقولون كما حكى القرآن عنهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٥٧]. إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة لأنهم تمرسُوا على الخطيئة وتشربت أرواحهم الإجرام فأنكروا الحق بعد معرفته وتطاولوا على «الله» وخذ مثلا عندما ذهبوا إلى النبى ﷺ وقالوا فى تعنت وعبث واستهتار يا محمد صف لنا ربك كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب الرسول ﷺ أشد الغضب فأتاه جبريل وتلا عليه الجواب المسكت لسؤالهم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

إن اليهود فى هذه الأيام يشنون على الإسلام وأتباعه الحرب الباردة فى نفس الوقت يخططون فى كل يوم لحرب ساخنة، فأين المسلمون؟ سؤال له إجابته إن شاء الله عندما يظهر صلاح الدين الأيوبى وهو آت فى يوم قريب عندما يفهم المسلمون قدرهم ويعرفوا وضعهم الدولى ويعرفوا قدر أنفسهم وبما تحمله أوطانهم وبلادهم

وأرضهم وبحارهم وأنهارهم من خير عظيم لو نظمناه فى خطة خمسية لارتفع مستوانا واستطعنا أن نمسك بزمام الأمر ويومئذ نقول «وامعتصماه» فنجد مليون معتصم يضع يده فى يد صلاح الدين الأيوبى ويتقدمون إلى ساحة القتال وهم يرددون ﴿ **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾[التوبة : ٤٠]. ثم يردد الناس من ورائهم دار ابن لقمان على حالها.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة فى تلك الحقبة التاريخية وهذه الأحداث التى سيطرت على الجزيزة العربية، استتب الأمر للمسلمين، وبدأ المشركون فى مكة يحاولون استرجاع اللحظات التى مرت بهم، عندما حضر إليهم وفد اليهود، وأثار فى قلوبهم الحميّة، وأغراهم بالنصر لأنهم كما زعم اليهود أن دين الوثنية خير من دين محمد، ولقد تورط المشركون بسبب هذه الفتوى وجمعوا جموعهم وحزّبوا معهم الأحزاب وبسبب الكبر الذى فى نفوسهم والغطرسة التى فى قلوبهم ظنّوا أنهم ذاهبون إلى رحلة يعودون بعدها بصيد ثمين (والصيد هو القضاء على الإسلام واقتلاع جذوره) ولكن شاءت مشيئة الله وهو العلى الأعلى أن ينتصر الحق لأن الله سبحانه وتعالى بيده الأمر وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥١، ٥٢].

ولقد انتصر المسلمون نصرا لم يكن فى حسبان أحد، لأن موازين الناس تحكم بأن النصر للكثرة فى العدد والعتاد، وغاب عن الناس أن عوامل النصر قد تكون بأسباب إلهية، وأسلحة ربانية مثل النوم فالنوم يلقيه الله على الإنسان فتهدأ نفسه وتقوى عزيمته ويزداد تصميما فى قضاء ما يهدف إليه يقول ربنا فى هذا ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]. كما أن المطر من السماء قد يكون من الأسلحة فينزل على الأرض فتتماسك به ثم يستعمله المسلمون فى

شربهم وطهارتهم ليقوموا بأداء الصلاة يقول ربنا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

إن ركب السماء دائما ينزل على المؤمنين يُكثّر جمعهم ويقوى عزيمتهم لأن من وصل نفسه بالله، حماه الله وقوّاه، وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

تلك بعض عوامل النصر ولا ننسى أن الأسلحة الإلهية التى كانت فى غزوة الأحزاب أسلحة جديدة والحق سبحانه يذكر بها الناس فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

إن المسلمين يثقون فى الله ومع هذه الثقة المطلقة فهم يخططون وبكل الوسائل الممكنة لأن الله أمرهم بذلك، فالإنسان منا عليه أن يعمل على قدر طاقته الممكنة، ولا يتكاسل، ولا يجبن، ولا يتخاذل، وهو فى أثناء تخطيطه يستعمل قواه العقلية كما يستعمل قواه البدنية ليصل إلى ما يريد فإن احتاج إلى مساعدة فالله عونه ومعينه لأنه

سبحانه لا يتخلى عن المؤمنين إذا صدقت نياتهم واستعملوا كل الوسائل الممكنة والمتاحة أمامهم وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الحج: ٣٨].

كما أن المؤمن الذى يثق فى الله يدرك تماما ما قاله الحق سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ولقد أكدت الأحداث التاريخية أن المسلمين فى الصدر الأول بقيادة النبى ﷺ عندما التزموا بالأوامر الإلهية وتمسكوا بالقيم الأخلاقية العالية والآداب النبيلة الرفيعة نزل عليهم الخير كله وحل فى ركابهم، انتصروا فى بدر وهم قلة وكما يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[آل عمران: ١٢٣].

وأكد الحق سبحانه للمؤمنين أن الموقف لا يحسب بالكثرة فى العدد أو العدة وإنما يحسب بالرجال، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فالرجل ينظر إلى قلبه ومدى علاقته بربه إن كان طاهر النفس حسن الصلة بالله يحب للناس ما يحب لنفسه عنده إيثار وكرم وسماحة فمثل هذا الرجل يزن عشرة من الرجال الآخرين واقرأ فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥].

إن المشركين فى مكة بدأوا يعيدون حساباتهم ولقد تناقلت الأخبار

بأن محمدا سيطر على الجزيرة العربية لأن الأنباء تطايرت تحكى أن الأحزاب رجعوا بخفى حنين وأن الخونة من اليهود نالوا جزاءهم وبدأوا يدرسون غزوة الأحزاب ويحللّون ما فيها لأنها بكل المقاييس تعطى دلالة قوية على فراسة الرسول ﷺ وبعد نظره، وأنه قائد يتسم ببعد النظر وصدق الفراسة والتنبؤ وأن خبرته السياسية وكفاءته فى ذلك جعلته يؤدى دورا فى كل موقف صعب يحتاج إلى خبرة وكياسة وفطنة وهنا كانت تظهر هذه العبقرية ا لفذة فى مثل :

١ - عندما أرسل إلى غطفان يعرض عليهم ثلث ثمار المدينة لأنه عرف أن الطمع فى نفوسهم وأنهم جاءوا محاربين من أجل المال، ودائما الرجل المستأجر أو الأجير، ليست عنده همة صاحب الحق.

٢ - توجيه النبى ﷺ لنعيم بن مسعود بأن يقوم بأداء دور غير مسبوق.

٣ - حفر الخندق فى أول الأمر، وهو سلاح مبتكر لم تعرفه العرب ولم ينزل فى أى معركة من قبل، لذلك، كان ظهور هذا السلاح من العوامل التى غيرت سير المعركة.

٤ - إرساله ﷺ وفدًا بزعامة سعد بن معاذ إلى يهود بنى قريظة يستحثهم للدفاع عن الوطن ويطالبهم بتنفيذ بنود المعاهدة المعقودة بينه وبينهم، أمر له دلالته فى بعد النظر.

٥ - ما حدث عند حفر الخندق من إرهاصات، لإعطاء الثقة فى نفوس المسلمين وإدخال الأمن عليهم وتهيئتهم لتحقيق الأمل أمر له دلالته فى تنشيط النفوس ودفع الروح المعنوية فى الجند.

٦ - ما حدث من معجزات رآها الجميع، من تكثير طعام جابر،

ومـاء الشـرب، وغـيـر ذلك من الأمـور التى جـاءت فى بطون الكتب الكبـرى، كل ذلك له دلالتـه على صـدق النبى ﷺ وأنه مؤيـد من الله الذى أمـره أن يأخـذ فى الوسـائل، أمـا النتـائج فـهى من عند الله وهو سبحانه لايضيع أجر من أحسن عملا.

إن غـزوة الأحـزاب تحـتـاج منا كـمـسلمين أن نحلل تفـاصـيلهـا وأحداثها وما جرى فيها ليكون المسلم على بيّنة بأن نبى الإسلام سيدنا محمد ﷺ لم يكن يحب الحرب، وإنما كـان يضطر لخوضها، دفاعًا عن نفسه وعـن الكيان الإسلامى، وعـن الوطن، إنه كـان يحـمل راية السلام بيـمينه وينادى على النـاس فى كل زمان ومكان أن يدخلوا تحت راية السـلام لأنه وسـيلة التـقـدم والازدهار، فى حـالـة السلم يعـيش النـاس فى سـعـادة وأمن، وينتـجـون، ويزرعـون، ويعـمـرون، ويتاجرون، وهذا هـو الهدف الأساسى من استخلاف الله الإنسان فى الأرض، ذلك جـاء فى القـرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[البقرة: ٢٠٨].

والذى يقـرأ تـاريخ هذا النبى العظيم يعـرف عنه ﷺ أنه عـاش فى حياته مسالما يكره الحرب ويبغضها ولا يحب إراقة الدماء لأنه الرحمة المهداة، لكن إذا أجبر عليها خاضها بذمة وشرف وأمانة والتزام بالمثل الإنسانيـة العـاليـة، يحرّم قتل الأطفـال والنسـاء والشيـوخ وينهى عن تقطيع الشـجر ومنع الماء عن الخصـوم، وينهى أصـحابه عن التبـول أو التغوط فى الماء الجارى أو الراكد أو فى الطريق العام أو فى الظل.

فـالحـرب عنده وسـيلة، لـهذا فـهـو يحـاول أن يحـافظ عـلى القـيم الإنسانية والأخلاق الكريمة.

إن غزوة الأحزاب فيها دروس متعددة تبين أن الإسلام دين بقوانينه سبق كل القوانين، ولعلنا إذا قمنا بعمل دراسة عن وثيقة حقوق الإنسان التى تفتخر بعض الدول وتتباهى بأنها صاغت بنودا تسمو بالكيان الإنسانى وترفع قدر الإنسان وتعلى شأنه نرى أن هذه الدول هى التى تقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعزَّل وتسهم فى إشعال الحرب هنا وهناك، فإن ذكرتهم بما قالوا قالوا لك، هناك محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن الدولى، فإن ذهبت إلى هناك وجدت البطء فى الإجراءات، وإن كان ميزان الحق إلى جانبك ظهر «الفيتو» كسيف مسلط على رقاب الضعفاء، وإن سألتهم أين الحق والعدل؟ قالوا لك حسبما تكون المصلحة فهذا هو قانون العدل، هذا ما حدث فى القرن العشرين، عصر السماء المفتوحة، ومئات القنوات الفضائية التى تبث برامج التليفزيون ليكون هناك غسيل مخ لملايين البشر، لأن المعارك الآن، انتقلت من ساحات الحرب إلى شاشات التليفزيون، وشبكات الإنترنت، وموجات الإذاعات، هذا ماحدث فى القرن العشرين، ونحن الآن دخلنا فى القرن الواحد والعشرين ولا ندرى ما هو مُخبأ لنا فى عقول العلماء، والمبتكرين والمنتجين لأن الزمن لن يتوقف، وهنا يتأتى السؤال، أين دور المسلمين؟ التاريخ يؤكد أنهم الذين تفوقوا فى كل ميدان فالساحة الآن أمامهم خاصة وأن المجتمع الدولى يشيد الآن بكفاءة المسلمين، وفى مقدمتهم العالم النابغة أحمد زويل، فهل آن لنا أ ن ندرس التاريخ المضىء حتى لا نكون ممن قال الله فيهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[الأنعام: ٤٤].

فليحذر الذين يخالفون أمر الله ، لأننا نؤمن بأن السماء لا تعطى بركتها إلا للجَّادين العاملين ، وتجود الأرض بخيراتها لهم لأن الله سبحانه وعد فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض بخبراتها لهم لأن الله سبحانه وعد فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض والسماء له سبحانه وأن من يرثها من الناس هم الصالحون .

ونأمل أن يفهم المسلمون هذا وأن يثقوا فى ربهم وهو القائل : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[الأنبياء : ١٠٥ ، ١٠٦] .

صدق الله العظيم . . وبلغ رسوله الكريم

المراجع

١ - سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها، ص ٢٣٨ وما بعدها .

٢ - السيرة الحلبية جـ٢ ص ١١٧ وما بعدها .

٣ - البداية والنهاية جـ٤ ص ١١٩ ، ١٢٢ .

٤ - الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ١٢٧ .

٥ - صحيح البخارى جـ٥ ص ٢٤٣ وما بعدها .

٦ - طبقات ابن سعد الكبرى جـ٢ ص ١٩١ .

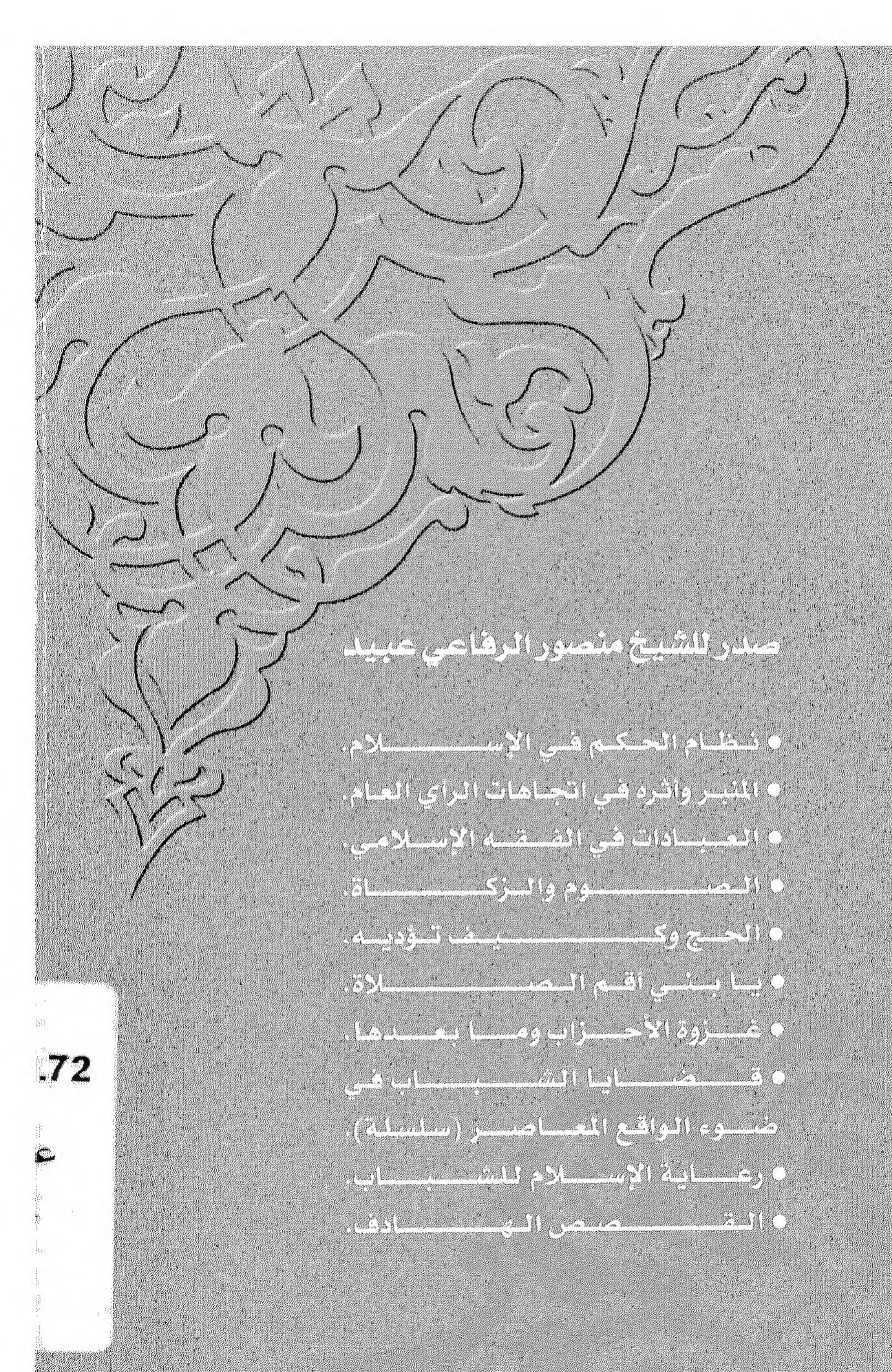
٧ - سمط النجوم العوالى لعبد الله بن حسين جـ٢ ص ١٣٨ .

٨- المغنى لابن قدامة جـ٨ ص ٤٢٤ كتاب الجهاد .

١٠- المحلى لابن حزم ص ٢٩١ .

دار البستاني للنشر والتوزيع
٢٩ ش الفجالة ١١٢٧١ القاهرة
ت ٣١٤٠٠١ ـ ص ب ١٠٠١٤
م.ض : ١٩١ ٢٤ ٤١٦٦ ٥ مدينة نصر

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي ـــ ١١٢٣١



صدر للشيخ منصور الرفاعي عبيد

- نظام الحكم في الإسلام.
- المنبر وأثره في اتجاهات الرأي العام.
- العبادات في الفقه الإسلامي.
- الصوم والزكاة.
- الحج وكيف تؤديه.
- يا بني أقم الصلاة.
- غزوة الأحزاب وما بعدها.
- قضايا الشباب في ضوء الواقع المعاصر (سلسلة).
- رعاية الإسلام للشباب.
- القصص الهادف.

KAMEL GRAPHICS